ر و ا يــة

هَمَسـات على ضِفـاف النّيـل

مُزيّـن يعقـوب بُرقـان

مُزيّن يعقوب بُرقان

هَمَسات على ضِفاف النّيل

دار الجندي للنشر والتوزيع

القدس

00972022340035

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

*

الطبعة الأولى (2014)

صورة الغلاف

النيل في عيون الغرب

هَمَسات على ضِفاف النّيل

مُزيّن يعقوب بُرقان

دار الجندي للنشر والتوزيع

الإهـــداء

إلى كلّ مَنْ أراد بمصر خيراً ...

إلى المُلْهِم حُزْناً وفَرَحاً، وحبّاً، الذي يندمج بين الحروف والكلمات،

وفي خفايا السّطور. "أراكَ في ذلك الأفق البعيد ... لا تطالكَ يدي،

ولكن تطالكَ روحي. فالمسافة بَين روحيْنا صفر من وحدات المسافة".

إليكَ أنتَ أيّها المُلْهِم.

إلى أبي الذي زرع في أعماقي حُبَّ الحرف

والكلمة واللّغة ...

مُزين يعقوب بُرقان

أحداث وشخصيات هذه الرواية خيالية، وإن أيّ تشابه بين هذه الأحداث والواقع فإن ذلك محض صدفة.

مُزين يعقوب بُرقان

أيّها الحُبّ...

لا يُقْنِعُ القلبَ غيابُكَ...

ولا يُقْنِعُ العَقْلَ حضورُكَ...

غُرباءُ عُدْنا...

تماماً كَما كُنّا...

غُرباءُ جدّاً... غُرباءُ حتماً...

ولكنْ...

أيُمكِنُني أن أنْسى لَوْنَ القصيدةِ في عَيْنَيْكَ.؟!

الفصل الأول

في ذلك اليوم من أيام حزيران من عام 2010م، وبعد شجار شديد مع والدتي، خرجتُ من البيت الكائن في أمبابة. خرجتُ ليس بذلك الغضب الذي يولّده شجار عنيف، بل بذلك الملل المغلّف بالاستياء من ما أنا فيه، وما أعتقد أنه يجب أن يكون. الليل يُظَلّلني بسواده في تلك الشوارع والأزقّة الشعبية القريبة من منزلنا. تدور الأفكار في رأسي كخطوط دوائر متداخلة في بعضها البعض. أمّي يزعجها ويضايقها عدم حصولي على عمل بعد أن أنهيت الخدمة العسكرية، ويثير جنونها أيضاً علاقاتي المتعددة مع الفتيات، وعدم موافقتي على الزواج من فتاة اختارتها هي لي.

أحاول دائماً أن أتجنّب الشجار مع والدتي، فالشجار معها مستنقع من المشاعر المؤلمة، ورغبة قوية في الإصرار... الإصرار على رأيي... وعلى ما أريد. أتألّم لأنني لا أحتمل إثارة غضبها مني في الوقت الذي لا أستطيع أن أستجيب لمطالبها. فأرى في الابتعاد المؤقت طريقة لإنقاذها من الغضب، وإنقاذ ذاتي من ألم المواجهة ... مواجهة أمّي. في الابتعاد، ولو كان لساعات، لن أسمع مطالبها، وهي لن تسمع ردودي الرافضة. خير أن يسود الصمت أحياناً، وربما معظم الأحيان.

عادة ما ألتقي بأصدقائي في القاهرة ... على النيل، وفي المراكب. بذلك المبلغ البسيط الذي كان في جيبي، قرّرتُ أن أدفعه لسيارة أجرة كي أذهب إلى كوبري قصر النيل، حيث ألتقي أصدقائي هناك.

صعدتُ في إحدى سيارات الأجرة، متوجهاً إلى "جاردن سيتي"، قاصداً شيئاً ما أو لا شيء على الإطلاق. أردتُ الابتعاد ولو لساعات، لعل أمّي تسير في اتجاه آخر في تعاملها معي. أو لعلي أجد سبباً للاقتناع. ماذا يفعل الآخرون عندما لا يملكون القدرة على مواجهة شديدة؟ ينسحبون عادة، وربّما دائماً. والآن فأنا أنسحب لأنني لا أملك القدرة على مواجهة أمّي بما يغضبها وليس لأنني لن أستجيب. أنسحب الآن لأنني ضعيف أمامها.

مرّت الدقائق سريعة على الرغم من الازدحام المعهود في شوارع القاهرة. قادتني قدماي نحو كوبري قصر النيل. تستنشق رئتاي هواء ممزوجًا بعبق النيل وسحر المدينة. الكوبري، كما هو في معظم الأحيان، مزدحم بالسيارات والناس ما يجعلك تدرك أنك في هذه المدينة العريقة. وفي نهاية الكوبري، يطلُّ عليكَ برج القاهرة الشامخ بأضوائه المتلألئة الراقصة، وبألوان قوس قزح. شامخ مرتفع بكبريائه، وروعة تصميمه، كأنه يعانق السماء. ويحجب القسمَ الأسفل منه فندقُ نوفوتيل بنوافذه وشرفاته المطلّة على صفحات النيل ونسائمه الأسطورية.

أمشي وحيداً، وفي أعماقي رغبة في التأمّل، كأنّني أذهب إلى هذا المكان أوّل مرة. في التأمّل نوع من الراحة. وهذا ما كنت أصبو إليه في تلك اللحظة. أستريح من نفسي لأجل نفسي، أستريح من مطالب أمّي التي أعجز عن تلبيتها، على الأقلّ في هذه الأثناء، أستريح من التفكير في الحصول على عمل. أستريح... كأنني أستريح من الحياة.

الآن تخلّصت من كل هذا. أمشي متأمّلاً النيل... الكوبري... المراكب بألوان أضوائها المختلفة... الناس... برج القاهرة الذي يطلّ عليك من بعيد وأنت تسير في بداية الجسر الذي يربط جانبيّ النيل. أتأمل جمال المكان... استنشق اللامبالاة الآن، فلم أعد أفكّر في شجاري مع أمّي، ذلك الشجار الذي قادني إلى هذا المكان في هذه اللحظة.

وبين فرحتي بتأمّلاتي، وفرحتي بلا مبالاتي، تصعقني فرحة أخرى فجأة. فرحة جمال طاغٍ يتقدّم نحوي، بهدوء مشاكس، يشير إلى رغبة قوية في نشوة ثورة عاطفية.

جمال أنثويّ، يسير على هذا الكوبري... يحرّض أعماقي على مغامرة الصيد، ولذّة التجربة. وما يصعّد التحريض في أعماقي على الصيد، أن هذه الفتاة تسير وحدها. ملامحها ليست مصرية، هكذا اعتقدتُ.

لم أتردّد أن أغيّر اتجاه سَيْري كي أمشي معها في الاتجاه الذي تسير هي فيه، ولم أتردّد في التحدث إليها، كما يفعل الشباب عادة عندما يروْن فتاة لأول مرة ويرغبون بها. ينتابهم التردّد في قول ما يريدون قوله في أوّل الأمر. لا أعرف التردّد مع فتاة تثير رغبتي، فأنا خبير المهامّ الشاقة في الغرام.

سألتها على الرغم من أنني شبه متأكد من أنها ليست مصرية:

- هل أنت مصرية؟

ابتسمتْ. عندما تبتسم فتاة استجابة لابتسامة منك، فاعلم أنك مَدْعُوٌّ للمتابعة. هكذا شعرتُ، أو هذه إحدى قناعاتي.

أجابت دون أن تختفي ابتسامتها.

- لستُ مصرية... أنا سورية، من حلب.

تساءلتُ والابتسامة تنتشر على وجهي.

- سورية؟ أهلا بكِ في مصر.

أمسكتُ بيدها كأنني أعرفها وتعرفني منذ وقت طويل. هي لم تعترض، وهذه دعوة أخرى للمتابعة. تُرى لماذا لم تعترض على أن أمسك بيدها وقد رأتْني منذ دقائق؟ تساءلتُ مندهشًا، لكنني كنت سعيدًا بعدم اعتراضها.

أردفتُ أقول فرحًا بهذا الجمال الذي أمسك ببعض منه:

- ها هي مصر قد ازدادت جمالاً...

قاطعتني ضاحكة:

- مصر رائعة الجمال بالمصريين... أروع شعب.

سألتها:

- ما اسمك؟

أجابت دون تردد:

- جمانة... وأنت ما أسمك؟

قلتُ:

- فتحي... هل هذه زيارتك الأولى لمصر؟

أجابت:

- هي الزيارة الأولى. وأنا سعيدة بزيارتي هذه. زيارة مصر كانت أمنية حياتي منذ زمن طويل... وأخيراً تحققت أمنيتي.

قلت مرحّباً بها مرة أخرى.

- أهلا بك في مصر.

راحت تحدثني عن نفسها، كأنها تريد أن أعرف المزيد عنها.

قالت:

- أنهيت دراسة الصيدلة قبل بضع سنين، والآن أعمل في إحدى الصيدليات في حلب.

أعجبني تدفّق حديثها معي، دون أن أوجّه الكثير من الأسئلة إليها، كما يفعل شاب عادة، عندما يلتقي فتاة لأول مرة. هي تزوّدني بما أريد أن أعرفه عنها، دون أسئلة منّي. وقد يكون في هذا إشارة ضمنية كي أستمرّ معها، وأن تترامى أحلامي، وتتّسع تخيّلاتي في علاقة غرامية، بدأتُ أرسم لوحتها منذ رأيتها. أنهت دراسة الصيدلة منذ بضع سنين، أما أنا فأنهيت الخدمة العسكرية منذ سنة تقريباً. معنى ذلك أنها تكبرني ببضع سنين. ومع ذلك، فإن سنين عمرها تبدو أنّها تتساوى مع سنين عمري. فيها جمال أخّاذ وأناقة تسبي العقل. عندما يقف الإنسان أمام جمال كهذا، فإن سنوات العمر تخرج بطريقة لا شعورية عن التفكير المنطقي.

قلت:

- أما أنا فقد أنهيت الخدمة العسكرية قبل سنة، والتحقت بالجامعة، ولم أكمل دراستي بسبب الأعباء المادية.

لا تزال يدي تمسك بيدها، دون أن أشعر أن يدها تتملص من قبضة يدي. اقتربنا من تمثال سعد زغلول، وبالقرب منه مبنى الأوبرا.

راحت تتأمل التمثال ثم سألتني:

- تمثال مَنْ هذا؟

قلت مشيراً بيدي إليه، ثم إلى مبنى الأوبرا.

- هذا تمثال سعد زغلول... وهذا مبنى الأوبرا.

قالت:

- سعد زغلول!

قلت:

- أتعرفين مَنْ هو؟

أجابت:

- زعيم مصري وقائد ثورة... أعتقد أنها ثورة 1919، قاوَمَ الانجليز، ونفي إلى جزيرة مالطة في البحر المتوسط، وعاد من المنفى في وقت لاحق...

قاطعتها:

- ما هذا؟ تعرفين عنه كأنك مصرية...

قالت:

- درسنا عنه في التاريخ. كانت مادة التاريخ هي المادة المفضلة لدي في المدرسة، مع أنني كنت أميل إلى دراسة الصيدلة منذ صغري...

لا أدري عـن أي تـاريخ تتحـدّث؟ أهـو تـاريخ العـرب أم تـاريخ الغـرب؟ لـم أسـألها. ولمـاذا أسـأل؟ كلمـة تـاريخ تـرتبط بالماضـي. مـاضٍ بـرّاق... وحاضـر مُبْهم. كلنـا يتحـدّث عـن تـاريخ أمجـاد العـرب... وحاضـر... اعتقد أنه غير مفهوم أو غير قابل للتفسير، كما لو كان حاضرنا ظاهرة غريبة.

قلت مشيراً بيدي:

- وهذا مبنى الأوبرا...

قالت مبتسمة:

- الأوبـرا للموسـيقى... الموسـيقى هي مظهـر مـن مظاهر حضـارة الشـعوب وتقدّمها وتطوّرها.

نظرتْ إلى برج القاهرة، ثم أردفت تقول:

- أتخيّـل نفسـي أعتلي هـذا البرج كي تهـيم الـروح في عـالم المرتفعـات... لا أخشى المرتفعات... بل تثير فيّ حبّ المغامرة. أتخيّل نفسي الآن، على هذا البرج كي أرى سـحر مدينـة القـاهرة، في هـذا الوقـت مـن الليـل اللامـع بأضواء المدينة.

ضحكتْ. بـدتْ سـعيدة جـداً، وأعجبني مرحهـا، وتمنيّـتُ لـو أسـتطيع أن أحملها بين ذراعيّ وأطير بها، إلى قمة ذلك البرج... إلى قمة المتعة. أطير بها

ومعها هائماً، راغباً، مغامراً، متحايلاً على الزمن، كي تنتشر رغبتي في مساحات فسيحة من الدقائق والساعات. أرتفع. أرتفع.. كطائر، ترفعني جناحا الحُبّ، بجانب مبنى الأوبرا...

هي والقاهرة وأنا...

ثالوث اوركسترا الحُبّ والغرام.

أتخيّل كلّ هذه السّعادة والمتعة معها. لكنّني على الأرض... لستُ على البرج... لست على رؤوس الأحلام. يلزمني بعض الوقت كي أعتلي برج أحلامي وتخيّلاتي الشرسة عشقاً معها. لا أزال لا أستطيع أن أحدّد قدرتي على السّير في مساحات ما تسمح به. ينتابكَ شعور عندما تمسك بيد فتاة لأوّل مرة وبهذا المرح المنطلق منها بأنّكَ تستطيع أن تحصل منها على ثلث الشيء... ثم تزداد شراسة أحلامكَ كي تتخيلّ أنكَ يمكن أن تحصل على نصف الشيء... وفي لحظة من اللحظات، يقفز إليك شعور بأطماع غرامية مذهلة كي تتخيلّ بأنك يمكن أن تحصل على كل شيء... وكلّ شيء. هذه مرحلة لم أصل إليها بَعْدُ... فالوقت يحسم أمرها.

سألتها مبتسماً:

- أيعجبكِ برج القاهرة؟

أجابت بسرعة، وضحكة جذّابة تراوغ وجهها الجميل:

- جداً. كم يبدو رائعاً.

في وقت لاحق، وبعد تأمّلات المكان، عدنا إلى حيث كنا. شعرتُ أنها ترغب في المتابعة... متابعة السير كأنها باحثة تريد أن تدرس تفاصيل القاهرة، وشوارعها وأسواقها.

ابتعدنا الآن عن كوبري قصر النيل، واتّجهنا نحو الشارع المؤدي إلى ميدان التحرير. اقتربنا من فندق "سميرا ميس" الذي تقيم فيه، ثم باتجاه الشارع المؤدي إلى ميدان التحرير.

في ميدان التحرير ترى المارّة، والمتنزّهين، والعشّاق، والعائلات. تحيط به مبان مرتفعة، وتدور حوله، بصورة شبه مستمرة، أرتال من السيارات.

قلت كأنني مرشد سياحي:

- هذا ميدان التحرير.

قالت وهي تتأمله:

- واسع وكبير...

استدارت، ثم أردفتْ تقول وهي تشير بيدها باتجاه شارع طلعت حرب.

- أرى هناك بعض المحلات التجارية... يبدو أن بعضها لبيع الملابس.

ماذا تفعل أمام اهتمامات أنثى؟ هل ينتقل تأثير اهتماماتها إليكَ بحيث تصبح جزءًا منك ومن اهتماماتكَ أنت أيضاً؟

هكذا شعرتُ. أصبحتِ الملابس المعروضة تستقطب اهتمامي فجأة ولم تكن كذلك يوماً ما. فأمّي تشتري كلّ ما يلزمني من ملابس، ويعجبني ذوقها... ذوق أمّي.

قلت بعد صمت:

- أجل لبيع الملابس...

قالت:

- أحبّ أن أتفرّج على الملابس النسائية المعروضة. أحبّ الإغراء في طريقة عرضها... الإغراء في شرائها.

لاذت بالصمت دقائق، ثم أردفت تقول:

- دعنا نراها.

هي تتحدّث عن الإغراء في طريقة عرض الملابس في المحلاّت التجارية، بينما عقلي شارد بنوع آخر من الإغراء. إغراء جسدها الذي يقودني إلى شعور بأني على شفا حفرة من المتعة واللذّة. أنا أهوى الآن

الحُفَـر... حفَـر الغـرام... وهاويـة الحـبّ. أهـوى الحُفَـر والأهوِيـة الآن، وقـد كنت قبلها مولعًا بالارتفاعات الشاهقة.

قلتُ مبتسماً:

- هيا بنا...

ذهبنـا. في شـارع طلعـت حـرب، تَكْثُـر المحـلات التجاريـة لبيـع الملابس النسائية والرجالية... ومحلات بيع الأحذية.

راحـت تتأمل فسـتانًا جميلاً في أحـد المحـلات،.. تتأمله باهتمـام بالغ كأنها تنوي شراءه. يدي تلتف حول يدها الناعمة.

أشارت بيدها إلى الفستان قائلة.

- يعجبني هذا الفستان. ألا ترى أنه رائع؟

هـزرت رأسي دلالـة الموافقـة، ثم رحتُ أتخيّلها ترتديه. فسـتان قصـير، فـوق الركبـة، ضـيّق، يُظهـر تفاصـيل الجسـد بطريقـة تـدعو إلى منازلـة الحـبّ. أتخيّـل الفسـتان يتعامـل مـع تفاصـيل جسـدها برقّـة... يتعامل مع القسـم الأعلى مـن ذراعيهـا... كتفيْهـا الصـغيرتيْن... ممتـدّاً إلى نهـدْيها الحـائرْين حبّاً، كي يزيـدهما حيرة، ثـم يهـبط هبـوط مَـنْ اقتحمتْـه سَكْرةُ الحُـبّ كي يقبّل مسـاحتيْ بطنها وظهرها بجـرأة... يمتـدّ... ويمتـدّ إلى

أن ينعم بنشوة القسم الأعلى من ساقيْها... وما فوق ساقيْها... نقطة الالتقاء... ونقطة الوصول.

كانت تنظر إليّ. يبدو أنها تتساءل عن سبب صمتي. أشارت مرة أخرى إلى الفستان بيدها ثم أردفت تقول:

- سألتك عن رأيك في هذا الفستان. لم تجْبني. ما رأيك؟

"أجاب خيالي"، قلت في نفسي.

ضحكتُ، ثم قلت:

- جميل جداً... أترغبين في شرائه؟

يبدو الفستان غالياً. تمنيْتُ لو كان معي ثمنه كي أشتريه، وأراه عليها... في منازلة جمالها، كأنّه جمال فوق جمال. آه... من هذا الفستان. مقدّمة اجتياح لا إراديّ لجسدها. قد تشتريه هي كي أحظى بما أتمنّى.

أجابت بعد دقائق من التأمّل:

- لا أعتقد ذلك. ثمنه ليس معي الآن. كل شيء في الفندق. وعندما غادرت الفندق لم تكن لديّ نيّة في التسوّق. ولكن قد أشتريه في وقت آخر.

تنهّدتُ تنهيدة إحباط. الإحباط من أن لا أراه على جسمها. لا أنا ولا هي. ثمنه ليس معنا الآن. يبدو أن هذا الفستان من نصيب جسد آخر... جسد آخر قد لا يحظى بكل مظاهر الجمال هذه. تغزو اللّوعة كلينا. لوعتي في أن أرى هذا الفستان على جسدها، ولوعتها هي في أن ترتديه. لا معنى للانتظار أمام المحل إذا لم تكن هناك نيّة في الشراء، فكّرتُ في داخلي.

قلتُ:

- لا أعتقد أننا يجب أن نبقى هنا.

ضحكتْ هي. يبدو أنها ضحكت على فكرة أنّنا نقف أمام محل لبيع الملابس، نتأمل معاً فستاناً كما لو كنا سنشتريه دون أن يكون معنا ثمنه.

قالت وهي تنظر إلى ساعة يدها:

- وأنا لا أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك. يجب أن أعود إلى الفندق.

على الرغم من أنني كنت مستمتعاً بكل لحظة معها، إلاّ أنني لم أرغب في أن أجبرها على البقاء، آملاً أن يكون لنا لقاء آخر في وقت قريب. لكنني، بالرغم من أنني كنت متفهّماً لسبب رغبتها في العودة إلى الفندق، إلاّ أنني شعرت برغبة في استبقائها ولو لبضع دقائق.

قلت آملاً أن يكون في كلامي شيء من الإقناع، وبإصرار موارب:

- لن تتأخري... ليل القاهرة جميل، ولا يمكن مقاومته.

قالت كأنّ كلامي أصاب هدف إقناعها:

- يمكننا أن نبقى معاً بعض الوقت.

"بعض الوقت". معنى ذلك ساعة أو ساعتان. هي لم تحدّد. لكن هاتين الكلمتين أسعدَتاني.

استمتع بوجودها معي بعض الوقت. أرى نظرات الناس تتقافز إليها إعجابًا، وتتقافز إليّ حسداً. الحسد في أن أرافق كل هذا الجمال وحدي.

اشتريت قطعتين من الشوكولاتة. هناك علاقة بين الشوكولاتة والحبّ. كلاهما يترك في الجسد لذّة تقود إلى الانتعاش والرغبة في المزيد. لا أدري مدى الصحة العلمية والبيولوجية في اعتقادي هذا.

نمشي... نأكل الشوكولاتة... والقاهرة جميلة برّاً وجوّاً.

نتجه الآن نحو ميدان التحرير.

قالت:

- الجو حار، لكنه جميل...

قاطعتها ضاحكاً:

- جوّ القاهرة جميل لأنكِ فيها.

قالت مبتسمة:

- كلامك ذات نكهة مصرية رائعة ومميّزة.

أجبتُ:

- أقول ما أشعر به...

ابتسمتْ مرّة أخرى. يبدو أنها تستطيب أن تكون قد تركت في داخلي شعورًا بالإعجاب بها.

قلت ونحن نقترب من ميدان التحرير الذي ينتشر فيه عدد من الناس:

- لنجلس هنا. أترغبين في ذلك؟

أجابت:

- هنا؟! بين كل هؤلاء الناس؟! أريد مكانًا أكثر هدوءًا.

جملتها الأخيرة أثارت في داخلي رغبة جسدية قوية، فالهدوء يثير الرغبة عندما يتعلّق الأمر بأنثى مشتهاة. لم أدرِ ماذا كانت تقصد بالتحديد عندما قالت تلك الجملة، لكنّ كلامها استقطبتْه رغبةُ

جسدي. مكان هادئ تدثّره الخلوة بها، قد يمكّنني من الفوز بِقُبْلَة أو بعناق طويل. بدتْ لي أنثى مشتهاة. لا أستطيع أن أفوّت متعة الوصول إليها، على طريقتي.

ولكن... كيف لي أن أجد مكانًا هادئاً في القاهرة التي لا تنام؟

مدينة مفعمة بالنشاط والحيوية ليل نهار. كيف أجد في القاهرة هدوءًا يفجّر رغبتي الجسدية؟ رحت أتساءل وقد وجدتُ نفسي فجأة في أوج الرغبة وعلى قمّة المغامرة. أأَصطحبها إلى شّقة مفروشة بسيطة، مستبعدًا الفنادق بسبب ارتفاع تكاليفها؟

ولكن ماذا ستكون ردّة فعلها هي إذا عرضتُ عليها الذهاب معي إلى شقة مفروشة؟ ولماذا أعتقد أنها بهذا الاستسلام لمجرّد أنها وافقت على مرافقتي والمشي معي في شوارع القاهرة؟ لن أجبرها على شيء، رحتُ أردّد في داخلي بين الحين والآخر. لن أجبرها لسببين. أولهما، لا أريد الدخول في أيّة مساءلة قانونية بتهمة الاعتداء على سائحة. وأما السبب الأهم من هذا، هو قناعتي بأنه لا متعة نهائياً في علاقة جسدية يكون الإكراه قاعدتها. سأحترم رغبتها مهما تأجّجت رغبتي في داخلي.

فكّرتُ أن انتظر، وأن لا أعرض عليها أمر الشقة المفروشة. فهذه الأمور تحتاج إلى الوقت. لا أدري لماذا اجتاحتني فكرة أنه لا يمكن

أن أعرض عليها أمر الشقة المفروشة بهذه السرعة؟ فالوقت ضروري لأيّة علاقة غرامية كي تنضج، هكذا شعرتُ لحظتها.

أمشي... يدي بيدها، ولذّة الشوكولاتة الممزوجة بلذّة الحبّ تسري في جسدي. للشوكولاتة طعم آخر إذا امتزجت بالحبّ، تماماً كالمطر الذي يسقط بعد غياب طويل، على أرض شقّقّها الجفاف. مطر له جمال آخر، وضرورة قصوى، وحاجة مُلِحّة.

قلت بعد صمت طويل، بطريقة مواربة إلى ما يجول في أعماقي من رغبة.

- وأنا أحبّ الهدوء كثيراً. الهدوء يقود الروح والجسد إلى الراحة.

قالت بسرعة:

- أتعتقد هذا؟ أرى أننا نسير في اتجاه واحد فيما يتعلّق بهذا الأمر.

يبدو أنها أدركت المعنى الظاهر لكلامي. ولو لم يكن الأمر كذلك لقالت: "اخترْ مكانًا هادئًا نكون فيه معًا." انتهينا من أكل الشوكولاتة لكنّ لذّتها لا تزال تسري في الجسد كأنها لذّة الحب... فَلذّة الحُبّ العميق لا تزول.

سألتها:

- كم من الوقت ستقيمين في مصر؟

أجابت:

- موعد مغادرتي بعد يومين...

تساءلت متعجّباً:

- يومان؟! بعد يومين؟! ولكن...

قاطعتني:

- ولكن ماذا؟

أجبتُ:

- لماذا كل هذه السرعة؟

قالت:

- الرحلة مُخطّط لها مُسْبقاً، وأنا مُلْزمة بموعد الطائرة.

الرحلة مخطّط لها مسبقاً، وأنا أخطّط لعلاقة غرامية حالياً. تُرى لماذا يجَتثّ الوقت مخطّطاتي؟ تُرى أي علاقة هذه التي عمرها يومان؟

رنّ هاتفي المحمول فجأة. نظرت إلى الرقم. هو أحد أصدقائي، ولم أدرِ كيف اجتاحتني رغبة في الردّ على اتّصاله في تلك اللحظات من

الدهشة والتساؤل. اتصل بي صديقي كي يذكّرني بموعد التوجه إلى فرح أحد أصدقائنا في القاهرة. كنت قبل يومين قد اتفقتُ معه كي نذهب معاً إلى الفرح. والآن يذكّرني بالموعد. كيف أخبره أنني غارق في السعادة الآن، مع هذه فتاة، ولم يعد حفل زفاف صديقي يعنيني في هذه اللحظة؟ لم أخبره أنني كنت برفقة فتاة، واعتذرت عن الذهاب معه موضحاً له أنني مشغول بأمر ما ظهر فجأة. حاول أن يستوضح هو الأمر، لكنني لم أجد في داخلي رغبة في التّفسير. ثم تَقَبّل هو الأمر هكذا، دون تفسير. أشياء كثيرة في حياتنا نقبلها دون تفسير، مثل: "لماذا أنا أنا؟ ولماذا أنتَ أنتَ؟" فكيف لا يكون الأمر كذلك في اعتذار مفاجئ عن الذهاب لحفل زفاف أحد الأصدقاء؟ انتهت مكالمتي معه.

سألتني مبتسمة بعدما سمعت حديثي مع صديقي على الهاتف:

- هل أنت مدعوّ إلى حفل زفاف؟

هي لها أن تسأل... وأنا يجب أن أوضّح. هكذا شعرتُ، دون أي استياء من سؤالها. لم أرغب أن أوضح لصديقي سبب اعتذاري، ولا أجد ما يزعجني في أن أوضّح لها هي.

قلت:

- أجل أنا مدعو لحفل زفاف أحد أصدقائي.

سألتْ مرة أخرى:

- ولماذا اعتذرتَ؟ أخشى أن يكون وجودي معك هو الذي دفعك إلى ذلك وحرمَك من تهنئة صديقك في يومه هذا.

هو كذلك. وجودها معي هو الذي دفعني إلى الاعتذار عن الذهاب، ولكن ليس بالمعنى الذي أدركتْه هي، وهو شعوري بالحرج من أن استأذن منها كي أذهب. فوجودها معي هو ما أريد، وما أرغب فيه. سعيد أنا معها، فكيف لي أن أحرم نفسي من سعادة جسدي كي أرى سعادة الآخرين؟ بهذه الأنانية الجسدية آثرتُ أن أبقى معها، وأنسى أمر زفاف صديقي. سأخبرها لماذا اعتذرتُ، ويروق لي أن يصلها سبب اعتذاري، كي تدرك عمق سعادتي معها، وربما كي أرى ردّة فعلها.

ابتسمتُ، ثم قلت ممسكاً بيدها بشدة:

- كيف لي أن أترك كلّ هذا الجمال وأذهب إلى فرح؟ سعادتي هنا وليست هناك.

ابتسمتْ، ثم ضحكتْ ضحكة إعجاب بما قلت. سرّتْني ضحكتها التي شعرتُ فيها برغبة لديها كي أبقى معها.

اقتربنا من الفندق الذي تقيم فيه. فندق سميراميس، فندق ضخم يطلّ على النيل.

أشارت بيدها إلى الفندق، وقالت مبتسمة:

- أنا أقيم في الطابق العاشر، في تلك الغرفة بالتحديد.

غرفة مطلّة على النيل. أرى شرفتها. فأضواء المدينة، والأضواء المنبعثة من الفندق تسهّل رؤيتها. هي تشير إلى الشرفة بيدها، بينما أنا أغرق في بحر التخيّلات. لا تستطيع أن تقاوم قوّة التخيّلات عندما تكون برفقة فتاة جميلة جداً، ومثيرة بكلّ أبعادها. بجمالها... ذكائها... مرحها... أنوثتها. غارق أنا في تخيّلاتي... تخيّلات تغرسني في مساحة متعة شاسعة. أتصوّر نفسي في غرفة الفندق... معها، في خلوة من صنيعة القدر... وفي رغبة جسدية من صنيعتي.

تُرى كيف أحتوي كلّ أبعادها؟! تُرى كيف تحتوي هي جنون رغبتي؟ كيف تجدني فيها؟

أوّل العشقِ قُبْلة...

كما في أوّل المطر قطرة...

فأغرقيني بأمطار قُبُلاتكِ...

وأعيديني إلى أوّل المطر...

إلى القطرة الأولى...

وإلى أوّل قُبْلة...

فإنّي أهوى الدوران في هذه الدورة العشقية...

أتخيّلها تحتويني... تحتوي الأول... والتالي واللاّحق من العشق...

وبجنون أحتويها... أحتوي كل إبعادها بعنف مَنْ أصابتْه جنون الرغبة... وبسرعة مَنْ داهمه قِصَر الوقت.

أطيل النظر إلى الشرفة، وتخيّلاتي تتّسع...

لا تسكن...

ولا تتوقف، تماماً كانسياب مياه النيل...

خيالي يصوّرها بين ذراعيّ بحرارة الحرائق... بأشواق أشعلها بُعد المسافات. أعانقها... كأنه عناق آسيا وإفريقيا معاً في نقطة التقاء واحدة. استنشق أنفاسها وأثمل... وتقترب شفتاي من ثغرها كي أنعم بأول قطرة... وأوّل لذّة من سَكرة شفتيها.

خيالي يصوّر قُبْلَة، تطلّ على النيل... قُبْلَة ينساب دفئها على صفحات النهر الخالد. آه... آه... ليت خيالي يتحقّق. آه... ليت الحقيقة تعزف لحن خيالي. كي تتحقّق تخيّلاتنا تحتاج إلى الوقت. لكن... لا وقت

لدينا. هو يوم أو يومان كما قالت. تُراني ماذا سأفعل في يوم أو يومين؟ هل يمكن أن تنضج علاقة عميقة في يوم أو يومين؟ لم أدرِ.

فجأة سمعتها تسأل ضاحكة كأنها أرادت أن تعرف مدى إصراري على البقاء معها:

- ما الذي يستبقيك إذا كنت مدعوّاً إلى حفل زفاف؟

هي لا تسأل. هي ترغب في أن تعرف سبب وجودي معها، أو ربما تريد أن تتأكد من السبب الذي تدركه.

جوابي كان جاهزاً. فأنتَ لا يلزمكَ الكثير من الوقت في التفكير فيما ستقول لِمَن تحبّ وتهوى. هي الكلمات تأتي وحدها، تنطلق باندفاع... تنطلق بدفء، وبرغبة قوية.

أجبتُ:

- أنتِ والنيل...

قاطعتني ضحكتُها الجميلة.

تساءلتْ:

- أنا والنيل؟! لا أجمل من أن تدمجني مع النيل. أنتَ تْتقِن فنّ الكلام، وتتقن...

قاطعتها:

- وأتقن ماذا؟

في النيل أرى سحر جمالها، وأسمع نبرات صوتها في همساته العذبة. الله... الله... ما أروعك أيها النيل! ها هي ذاكرتكَ تختزن عشقاً جديداً، قلت في نفسي.

أحادث نفسي صمتاً بسحرها، وهي شاردة الذهن ربّما في جواب على سؤالي.

جرؤت يدي فجأة وامتدتْ إلى خدّها، ثم إلى عنقها، وراحت تتابع الزحف إلى القسم الأعلى من صدرها الناعم. ابتعدت هي قليلاً وهي تنظر حولها.

جاءت إجابتها على سؤالي غير متوقعة، لكنها رائعة:

- وتتقن ملامسة الأنثى...

ماذا يخطر ببالكَ إذا أجابتكَ فتاة جواباً كهذا؟ بالتأكيد يخطر في بالكَ أنكَ تسير في الاتجاه الصحيح معها، وأنها تستطيب ما تفعله أنتَ. جوابها أعادني إلى جولة تخيّلات أخرى. الآن ونحن على بعد خمسين متراً من الفندق أو يزيد عن ذلك بقليل، أتخيّل شفتي على شفتيها، وعلى

عنقها، وعلى نهديْها. آه... لو يرحمني صخب القاهرة وينام قليلاً كي أخلو بها، وأتمتّع، وأفعل ما يحلو لي. ففي مخيّلتي الكثير.

لكنها... لا تنام... لا تهدأ... لا تسكن. القاهرة لا تنام... فكيف يسكن نبض مصر؟

يُقال إن المرأة لا تضعف إلاّ مع مَنْ تحبّ وتعشق. أكانت في ذلك الضعف الذي يمنحني كلّ شيء؟ لم أدرِ.

ليل القاهرة جميل، العالم جميل... وهي أيضاً كذلك. كأنني غُلّفِتُ بالجمال فجأة، وفي ذلك الجزء من القاهرة.

عُدتُ أقول لها:

- أنتِ جميلة جداً.

كان في كلامي تلميحاً، تمنيْتُ أنْ تدركه هي، وهو أنّ شعوري نحوها يتجاوز حدّ الإعجاب، وأنّ رغبتي تأخذ اتجاهاً جسدياً عميقاً. جاء ردّها على كلماتي بالابتسامة.

يبدو أنها لم تفهم ما قصدتُ. هكذا قرأتُ في ابتسامتها. ربما شعرتْ بأنّ كلامي لم يخرج من دائرة الإعجاب. أكان يجب أن أوضّح أكثر؟ أكان ينبغي أن أقول: "أنتِ مثيرة جنسياً كي تفهم؟" ولماذا لم أقل

هذا وقد جرؤت على ذلك الكلام مع غيرها؟ أكان الوقت سبب ذلك؟ فقد تعرّفت عليها قبل بضع ساعات.

قد يكون الوقت هو السبب. لم تُزهر أزهار الإفصاح بَعْد. الإفصاح عن رغبتي فيها، واشتهائي لها. فللوقت طريقته في تشكيل الأمور وإظهارها. أصبحتُ محكوماً للوقت في إتمام هذه العلاقة. اقتربنا من الفندق.

قالت بعد صمت:

- يجب أن أذهب الآن.

هي إذا ستغادر. ما أسرع اللحظات والساعات معها. أنتَ لا تدرك مقاييس الزمن عندما تكون مع مَنْ تحبّ وتشتهي. ليس الزمن وحده الذي خرج من دائرة إدراكي في تلك اللحظة، بل اتصالات أهلي أيضاً، واتصالات أمّي بالتحديد. أمّي تشعر بالقلق من غيابي، وهي لا تدري أنني في أسعد لحظات حياتي.

قلت باللهجة المصرية:

- هتوحشيني.

حقاً سأشتاق إليها، كأنّ الذي يفصل هذه اللحظة عن الغد أيام أو شهور، وليس ساعات. سأشتاق إليها، وكيف لا وكل جزء في

جسـدي يناديهـا؟ مـاذا تفعـل وقـد وجـدتَ نفسـكَ في مصـيدة رغبـة جسدية؟ فأنّى لك الفرار؟

هي التي تفـرّ... هي التي تغـادر الآن، وأمـا أنـا فقـد تمكّنـتْ منّي مصـيدة الرغبـة. عبرتِ الشـارع، وتوجهـتْ نحـو مـدخل الفنـدق، بينمـا وقفـتُ، نـاظراً إليهـا، مسـتاءً مـن مغادرتهـا. أنظـر إليهـا وأردّد في أعمـاقي: "كيف تركتها تذهب؟ ماذا أفعل الآن وقد تمكنتْ مني الإثارة؟"

مشـيتُ على جانـب الشـارع، متوجّهـاً نحـو كـوبري قصـر النيـل، لكنّني عـدتُ باتجـاه الفنـدق قبـل أن أصـل الكـوبري. عـدتُ متمنّيـاً رؤيتهـا ولـو عـن بُعْـد. عـدتُ متمنّيـاً شـيئاً منهـا في ذلـك المكان الـذي تقـيم فيـه. وقفـت حـائراً أمـام الفنـدق. أَأطـرق بـاب الهجـوم أمْ أطـرقُ بـاب الانتظـار؟ كيـف أصـل إليهـا؟ تنتـابني رغبـة في أن أختـرق الفنـدق بحـرّاسـه كي أصـل إليهـا... وقفـتُ متردّداً بعدمـا بـدأت فكـرة اختـراق الفنـدق تتسـرّب مـن رأسي بسـبب صـعوبة الـدخول. بالإضـافة إلى ذلـك، لا أدري مـاذا سـتكون ردّة فعلها هي إن فعلتُ ذلك.

رفعـتُ عينيّ، ونظـرت إلى الفنـدق آمـلاً أن أراهـا على الشـرفة. لكنهـا... ليسـت هنـاك. مـاذا تفعـل هي الآن يـا تُـرى؟ تسـاءلت في داخلي. خطرت ببالي فكرة الاتصال بها، ففعلتُ.

قلتُ:

- ألو...

اسمع ضحكتها على الهاتف. يبدو أنها تضحك على لهفتي عليها.

جاء صوتها وسط ضحكات متتالية:

- أنت!

قلت والسعادة تعصف بأعماقي:

- ومَنْ غيري؟! بالطبع أنا. ماذا تفعلين الآن؟

أجابت بعد ضحكة مثيرة:

- لا أفعل شيئاً... فقط أستعدّ للنوم.

قلتُ:

- سأطلب منكِ أمراً.

سألتْ:

- وما هو.

قلتُ:

- تقدّمي نحو الشرفة كي أراكِ.

يبدو أنها تستهجن طلبي برؤيتها وقد كنتُ معها قبل دقائق. أكانت تشتاق إليّ كما كنتُ أشتاقها ولم يمضِ على فراقنا سوى بضع دقائق!

هي الآن على الشرفة... تلتفّ بروب أبيض كالملاك، يندمج نوره بأضواء الشوارع وأضواء الفندق المتلألئة. حبيبتي ها هي... كأنها نور ينبثق من نور. ما أجملها! وما أجمل البياض الذي يحتويها! وما أجمل الشُرفة التي تحملها! رؤيتها، وبذلك الروب الأبيض اللامع الذي يغطّي مكامنها، لم تطفئ رغبتي، بل أشعلتْها.

قالت على الهاتف وهي ترفع يدها نحوي:

- اعتقدتُ أنك ذهبتَ...

قاطعتها، وقلت باللهجة المصرية:

- انتِ وحشتيني... وحشتيني جداً.

قالت كأنها تختبر لهفتي وأشواقي لها:

- ألا تستطيع أن تنتظر إلى الغد...؟

الغد... الغد. فقط في حسابات العشق وتقديرات الرغبة، فإن الغد دائماً بعيد. أَأُخبرها أنني لا أستطيع أن أنتظر إلى أن يأتي ذلك الغد

البعيد؟ شعرتُ أنني يجب أن أخبرها بعدم قدرتي على الانتظار لعلها تشعر بما يجول في داخلي من رغبة آخذة في التصاعد.

قلت:

- لا أستطيع..

قاطعتني ضاحكة:

- لا بدّ لك أن تنتظر...

قاطعتها باللهجة المصرية:

- مش قادر...

ضحكتْ. ضحكة أخرى تطرب أذني، ثم تنتشر ذبذباتها في سائر جسدي كي تزيدني رغبة ولوعة.

قالت بعد ضحكة طويلة مثيرة:

- يجب أن أنام... ويجب أن تذهب أنت... الناس في الشارع ينظرون إليك.

قلت دون مبالاة:

- لا شأن لهم بي.

قالت مرة أخرى:

- أرجو أن تذهب...

قاطعتها:

- أردتُ أن أراكِ...

قالت:

- ها قد رأيتني. يجب أن تذهب. إلى اللقاء غداً.

غادرتِ الشرفة... اختفى ذلك البياض المثير اللامع مع أضواء الشارع، وأضواء الفندق الخارجية. هي ملفوفة بذلك البياض، وأنا ملفوف بتلك الرغبة... لكنها ذهبتْ، تاركة إياي في صراع عنيف مع رغبة تأبى الكبت.

* * *

في وقت لاحق، توجهت نحو كوبري قصر النيل أفكّر فيها... أشتهيها... أفكّر كيف سأظفر بها، وكيف أتمكّن منها. هما يومان وستغادر القاهرة كي تعود إلى سوريا. فماذا أفعل؟

ما الذي يمكنكَ أن تفعله في هذه الفترة القصيرة، إذا كانت أحلامك الجسدية تتجاوز هذه الفترة بكثير؟

أمشي على كوبري النيل... وأتأمّل الأماكن التي استوقفتنا، والتي جمعْتنا على موعد مع الحُبّ. أصبح الكوبري يرتبط بذكرى جميلة، وسعادة مثيرة منذ كانت هي. سعادة تتغلغل في الأعماق.

الكوبري، الناس، السيارات... وأنا والسعادة. أنا وسعادتي بالغد، والهاتف المحمول يرنّ. "هذه أمي"، قلتُ في أعماقي قبل أن أنظر إلى الرقم على الشاشة. هي قلقة كعادتها.

أسرعت الخطى، كي أستقل سيارة. كان لا بدّ أن أتوجه إلى البيت في ذلك الوقت كي أتجنّب شجاراً آخر مع والدتي.

عدتُ إلى المنزل في الجيزة، أمبابة. منزلنا يقع في حيّ شعبيّ. والدتي يثير غضبها تأخّري. تصرخ أحياناً، وتتذمّر أحياناً أخرى. قبل دخولي المنزل، عادة تغلّفني حالة استعداد لأسئلتها "الأبدية الأزلية". أسئلة تعدّدتْ وتكرّرتْ وتشابهت، وربما تشابكت. اعتدتُ أنا على "الفنون"، فنون الكذب سمّيتها. أسئلتها: "كنت فين؟ بتعمل أيه؟ مع مين؟"

السؤال الأول جوابه متعدّد الاتجاهات، وذلك حسب الأماكن التي أتواجد فيها. بعض الأحيان أجيب: "في القاهرة، في الإسكندرية، في بور سعيد". السؤال الثاني جوابه: "بدوّر على شغل، أو بتمشّى". وأما

السـؤال الثالـث فـلا أسـهل مـن جوابـه: "مـع صحـابي". أذكـر لهـا أسـماء أصدقائي الذين تعرفهم بأسمائهم فقط، وذلك كي تصدّقني.

لكـن هـذه المرّة. الأسـئلة هي الأسـئلة، لكـن الأجوبـة ليسـت هي الأجوبـة. قلـت في داخلي. فالسـؤال الأول: "كنـت فـين؟" جوابـه: "في أجمـل مكان في مصـر". والسـؤال الثـاني: "بتعمـل أيـه؟" جوابـه: "أكتشـف الغـرام الحقيقي." والسـؤال الثالـث: "مع مين؟" جوابه: "مع فتـاة اختزلـت النسـاء في جسـدها، وانصهر السّحر والجاذبية في رقّتها وأنوثتها."

هـذه المرّة... ومـا أغـرب هـذه المرّة! نفـس الأسـئلة، لكـنّ الأجوبـة تأخـذ اتجاهـاً آخـر في أعمـاقي. تسـأل أمّي. هي اعتـادت على أجـوبتي، لكنهـا تسـأل. وأنـا اعتـدتُ على أسـئلتها، لكنني أجيب. لا أدري ما معنى أن تسـأل أنت سـؤالاً تعرف مُسْبَقاً جوابه. ولا أدري ما معنى أن تجيب على سـؤال يخلو من المفهوم والمضمون الحقيقي للسـؤال. لكنها مع ذلك تسـأل، ومع ذلـك فأنـا أجيـب. أجيـب بهـدوء، لكـن التـذمّر يرتسـم على وجههـا. تتـذمّر بسـبب تأخّري المتواصل عن البيت. هي تعتقد، واعتقادها معظم الأحيـان صـائب، أنني مـع الفتيـات. ولكـن كيـف اجتاحَـها هـذا الاعتقـاد؟ أكـان بسـبب تلك المكالمات التي استقبلها أو أقـوم بها؟ قـد يكون هـذا السـبب، فأنا لا أحدّثها عن علاقاتي.

أمـي غـاضـبة وتتـذمّر، وأنـا أردّد في أعمـاقي: "مَـنْ يسـتطيع أن يقـاوم أنثى جميلة؟" هي لا تفهـم هـذا... أو هي لا تفهمني. الفتيـات بالنسـبة

لي، ولأي شاب، حاجة جسمية. هي تعتقد أن الحلّ هو الزواج. الزواج من فتاة اختارتها لي. الزواج التزام، ولا أعتقد أنني سألتزم بأمر كهذا في هذا العمر. لا أعتقد أنني سأستسلم لقيود الزواج... آه... آه... أيّ رجل هذا الذي يكتفي بامرأة واحدة؟!

والدي أكثر لطفاً معي من أمّي. يبدو لأنّه رجل... يقدّر ما يدور في أعماقي. فالرجل يفهم ويقدّر مشاعر الرجل. يتحدّث والدي معي بهدوء، ممسّداً حديثه بالنصائح. هو يحدّثني بين الحين والآخر، يبدو عندما يصله ما يصله من استياء أمّي من تصرّفاتي، التي، تعتقد هي، أنها لا تسير في الاتجاه الصحيح. يفرد نصائحه أمامي مثل: "يا ابني هذه العلاقات حرام... الجنّة والنار... الأمراض... الحلال..." وكثيرة هي كلمات النُّصح التي يسردها لي. نصائحه تستقرّ في رأسي... أدرك مدى الصواب فيها وهو يتحدث إليّ، وأشعر بامتنان عميق له على كلماته ونصائحه التي تقود إلى الحماية. لكن لا أدري ما الذي يحدث عندما يصعقني جمال فتاة. أين تذهب نصائحه؟ وأين يبعثرها جمالُ أنثى؟ أين تفرّ نصائح والدي؟ نصائحه ليست في رأسي عندما أكون مع أنثى.

نصائحه تتلاشى... ثم تختفي من رأسي. ولكنْ ما الذي يُخْفيها من رأسي؟ أَتَسحقُها إغراءات الحياة؟ أم تنسفها جاذبيّة أنثى مشتهاة؟ هي تلك... جاذبيّة أنثى مشتهاة تَسلُبُ ما أحتوي من قوّة... وأشتهي ضعفي.

ولجتُ حجرتي بعدما أجبتُ كتلميذ على أسئلة أمّي، واستمعتُ كتائه إلى نصائح والدي. جلستُ في سريري، وذلك الضوء الخافت المثّبت على الحائط أمامي يراوغ وحدتي وصمتي. في السرير يجتاحكَ ما يجتاحكَ من تفكير. تفكيركَ يقودكَ إلى اتجاهات متعدّدة معظم الأحيان، وإلى مسالك متشابكة، متداخلة تقف عند مفترقاتها تائهاً، حائراً، متسائلاً. أسأل نفسي تلك الأسئلة الغبيّة عند مفترق طرق التفكير: "لماذا تتذمّر أمّي؟ ولماذا يقدّم لي والدي النصائح؟ ولماذا أتزوّج؟" ثم أختتم سلسلة تساؤلاتي بسؤال لا أدري مدى وجوبه، أو مدى الصواب والخطأ فيه. سؤال يجتاحني عندما أجد نفسي عند عتبة "التوقف". "لماذا كلّ ما يُسْعدنا هو في معظم الأحيان من منطقة المحظور؟" لا أفكّر عادة في موجبات هذا السؤال، ولا أفكّر في جواب له. هو يأتيني هكذا... لا ينتظر جواباً. ليس لأنّ لا جواب له، بل ربما لأنّ الجواب لا يستقطب اهتمامي كالسؤال نفسه. كم من الأسئلة تجتاحنا دون أن تكون لدينا الرغبة في الإجابة عليها، رغم درايتنا العميقة بالأجوبة. هكذا شعرتُ أنا. هكذا استدعت لحظاتي عندئذ. سؤال لا يستدعي جواباً بل تنطلق منه كلمة "لماذا" عنقودية؟

هي الآن أمامي... صورتها تتقافز في فضاء الحجرة. صورتها تضيء الحجرة بقوّة حضورها، كأنها ضوء شمسيّ، أو نور قمريّ. هي الآن في مخيّلتي كأنّ ذلك السؤال استدعاها. فهي السعادة، ورغبتي فيها هي المحظور. السعادة والمحظور يجتمعان أحياناً. أجدهما يجتمعان الآن.

أمسكت بهاتفي المحمول، ورحتُ أتأمّل رقمها في مصر. رقمها الذي أخذته منها عندما كنت معها على كوبري قصر النيل.

"أأرتشِفُ السعادة قبل النّوم وأطلب رقمها الآن؟ "سألت نفسي. لكنها... قد تكون نائمة الآن، فكّرت متردّداً. "هي نائمة". راح تفكيري يرّجح فكرة أن تكون نائمة في تلك اللحظة. آه... آه... هي نائمة، وجسدي لا ينام، فهو يناديها. تفكيري المتواصل فيها يخترقه صوت أمّي في الحجرة المجاورة. هي تتحدّث مع والدي. لا أدري عن ماذا تتحدّث بالتحديد، ولا أعلم عن مَنْ... لكنني أسمع أمّي تنطق اسمي بين الحين والآخر. إذاً انا موضوع الحديث، اكتشفت لاحقاً. يختفي صوتها، فيُخَيّل إليّ أن أمّي نامت، وأنني سأسعد بتخيّلاتي النرجسية والشبقية. يختفي صوت أمّي، ثم يعود كهبّات الريح، تذهب وتجيء. لم أدرِكم من الوقت مرّ حتى اختفى صوت أمّي، ولم يَعُدْ يخترق سكون وهدوء حجرتي. يبدو أن أمّي ووالدي ناما. اخوتي ناموا. كلهم غارقون في النوم، وأما جسدي، كمدينة القاهرة، لا ينام.

الفصل الثاني

صباح اليوم التالي استيقظتُ من نوم أشبه باليقظة. متى يجتمع النوم واليقظة في وقت واحد؟ هو الحبُّ وحده الذي يجمع هذيْن النقيضيْن. أفتح جفنيّ، ثم أغمضهما، مُسترجعاً تلك اللحظات مع جمانة. استرجع ليلة أمس، وأفكّر في سحر الأماكن التي جمعتنا، وفي سماء القاهرة التي غلّفتنا دفئاً، وأفكّر في انسياب مياه النيل الذي هَمَس لنا عشقاً.

ها أنا أفتح جفنيّ، يناديني يوم جديد... ويستقطبني لقاء عشقيّ رائع. اليوم جميل... القاهرة جميلة... آه... آه... مصر كلها رائعة.

فتحتُ جفنيّ دون أن أقوى على النهوض. عدتُ أسترجع كلامي معها... استرجع ملامح وجهها، ونبرات صوتها. كأنها معي... إلى جواري... في سريري... في دفء أحضاني... هكذا تخيّلتها. أتخيّلها، وتسري في جسمي السعادة.

في سريري الآن، لا أتحرّك. يجتاحني الكسل... تسري في جسدي الرغبة، في حجرة غلّفها الهدوء. هدوء قلّما أجده في هذا الوقت من النهار، الساعة العاشرة صباحاً. ففي هذا الوقت، وقبل هذه الساعة، ينتشر أفراد العائلة للبدء في الأعمال اليومية، من تناول الفطور،

والاستعداد للتوجه للعمل، والأعمال المنزلية التي تقوم بها أمّي. نهار متجدّد عشقاً، نهار مختلف، بهدوء غير مألوف.

نهضت من سريري فجأة، بعد كسل أستمرّ بعض الوقت. توجهت نحو النافذة وفتحتها. أستنشق الهواء الآن... هواء القاهرة... هواء الحُبّ. أشعّة الشّمس تفترش المكان. البيوت المجاورة يصدر منها أصوات متداخلة. أصوات أطفال يلعبون، وأشخاص يجوبون الأماكن المجاورة. جلبة في الأماكن المجاورة، وهدوء في منزلنا.

القاهرة الجميلة، بليلها ونهارها، تستقبل أشعّة الشمس، وأمّا أنا فأنتظر المغيب... مغيب الشمس، وشروق اللقاء الغراميّ. تغيب الشمس كي يشرق لقاؤنا في القاهرة، على كوبري قصر النيل، الساعة الثامنة مساءً، كما أخبرتني. شروق الشمس تغلّفه معاني الأمل والدفء والبدء والنشاط. أما، في هذه اللحظة بالذات، فإني أشعر أن الغروب هو الذي أصبح مغلّفاً بمعاني الشروق والدفء والبدء. فبلقاء حبيبتي تشرق الأحاسيس... تبدأ المشاعر... ويسري الدفء في جسدي. أنتظر غروب الشمس، وشروق الحبّ. مع كل هذه السعادة التي كنت أشعر بها في تلك اللحظة رحت أتساءل حائراً، ويائساً أحياناً أخرى. ما الذي يمكن أن يحدث بيني وبين فتاة تقيم في القاهرة لمدة يومين أو ثلاثة؟ ما الذي يمكن أن لا يحدث في هذه الفترة الطويلة بمشاعرها وأحاسيسها والقصيرة بدقائقها؟ التفكير العميق في جواب واحد لهذين السؤالين

يطرق باب "السرعة". جواب واحد لسؤاليْن كغصن تَتَفرّع منه ورقتان. أهي السرعة التي أحتاجها الآن كي أنال منها ما أريد؟! فكّرتُ متعجّباً. وإن كان الأمر كذلك، فكيف أُشْبع رغبتي بمقاييس زمنية قصيرة؟ فبناء علاقة عميقة يحتاج إلى التريّث والوقت الكافي كي تنضج. لا يمكن للسرعة أن تُشْبع حاجة تتطلّب البطء، كالغيوم التي لم تصل إلى درجة التشبّع. فهي لا تمطر.

حائر أنا، والرغبة فيها تسكنني. لم أعد أفكّر في الوقت، وأصبحت الرغبة هائمة، سابحة في بحر تفكيري. هناك ما يمكن أن نحقّقه حتى في أقصر اللحظات. فمنذ رأيتها وعرفتُ أنها من بلد عربي آخر أدركتُ أنّ علاقتي معها خاطفة. أقول خاطفة، ولكنْ ليست عابرة. أرى أنّ هناك فرقاً. أشعر أن علاقتي بها خاطفة بلحظاتها، لكنها ثابتة بتأثيرها، وراسخة بجمالها. علاقة راسخة وليستْ عابرة مع أنني أدرك تماماً أنها علاقة تخلو من الالتزام... والقيود... قيود الزواج. لم أدرِ كيف استطعتُ أن أميّز وأفرّق بين هاتيْن الصيغتيْن المتلاصقتيْن من الكلمات؟ علاقة راسخة، وليست عابرة، لكنها تخلو من الالتزام والقيود.

هكذا بدتِ الصورة أمامي. وهكذا جرتِ الكلمات في نهر تفكيري. ما الذي أريده من فتاة أدرك تماماً أنني لن أتزوّجها؟ فأنا لم أتخّذ قرار الزواج بعد. أهو قضاء وقت ممتع مع أنثى جميلة؟ هل هذا هو شعوري؟

شعور كشعور أي رجل عندما يصعقهُ الجمال، دون الرغبة في الالتزام؟ بدتِ الأمور متداخلة في أعماقي.

النافذة يتسّرب من خلالها الهواء الساخن... يتسّرب الهواء ويتّجه نحو فضاء الحجرة، وذلك الجزء من مصر يملؤه الضجيج وصخب الحياة. فجأة، ولج حجرتي ابن أختي، زياد طفل في سنته الثانية. لم أدرِ كيف تمكّن من فتح باب الحجرة، أم أن أحداً في الخارج فتح له الباب وأدخله؟ الطفل يبيتُ مع أمه في بيتنا منذ يومين. أسرع زياد نحوي فأمسكت به ضاحكاً. رحتُ أداعبه. هناك نوع من السعادة تشعر بها عندما تداعب طفلاً. ما سرّ هذه السعادة يا تُرى؟ ما هو منبعها؟ أهي البراءة؟ ولكن مَنْ يقتل البراءة فينا نحن الكبار؟ أهو الوقت؟ أم الناس؟ أم التجارب؟ أم أنفسنا؟ أم كل شيء؟ أم لا شيء؟ آه... آه... لا أدري. الطفل بين ذراعيّ. وأنا سعيد به... وبوجوده، وبضحكاته المتناغمة التي تصدح في فضاء الحجرة كما الموسيقى.

في وقت لاحق من ذلك النهار، غادرت المنزل، وأخذتُ أتجوّل في شوارع القاهرة. أتجوّل بذلك الكسل، وبتلك اللهفة والرغبة في أن تمرّ ساعات النهار، وتغيب الشمس كي تشرق شمس الغرام. أمّي، كعادتها، تعتقد أنني غادرت المنزل كي أبحث عن عمل. هذا ما أقوله لها عندما أغادر البيت. "البحث عن عمل". عمل؟! عمل؟! "هوّ فين الشغل يا مصر؟" قلتُ في نفسي متسائلاً. ليتني أجد عملاً. فأنا، كغيري من آلاف

المصريين الذين لا يجدون عملاً. تتذمّر أمي كلما أخبرتها أنني لا أجد عملاً على الرغم من البحث المتواصل. هي تتذمّر، لأنها تعتقد أنني لا أفعل ما ينبغي كي أجد عملاً، وتعتقد أيضاً أنني أستطيب حياتي هكذا، دون عمل ودون زواج طالما أجد ما أحتاج من مال من والدي، وأجد ما أحتاج من الرغبة الجسدية من النساء والفتيات. لذلك لا يهمّني أن أجد عملاً، أو أن أخوض تجربة الزواج، حسب اعتقاد أمّي. حتماً الاعتقاد الثاني هو أكثر صواباً من اعتقادها الأول. فأنا لا أستطيب أن ينفق والدي عليّ. ليس لأن والدي لم يعد ملزماً بالنفقة عليّ، بل لأنني أؤمن أنه لا يستطيع أن ينفق عليكَ أحد كما تشتهي وكما تنفق أنتَ على نفسكَ. هذه الأنانية اللاشعورية تسيّرنا في كثير من مسالك حياتنا. حبّ النفس، والبحث عن الذات بتلك النرجسية الموجودة في أعماقنا، وخضوع لا شعوري لرغباتنا بطريقة أو بأخرى. حبّ النفس وتفضيلها شعور راسخ ومتعّمق فينا. مع أنّنا نُظهر أن حبّ الذات بهذا العمق عيب ندّعي أننا نخجل منه. نُظْهر أنه عيْب ونضمر أنه يسيطر علينا ويسبّب لنا السعادة. ربما لكلّ منّا شخصّيتان. شخصّية نظهر فيها أمام الناس كما الملابس الأنيقة، وشخصّية دفينة تكشفها وحدتنا وخلوتنا بأنفسنا.

أمّي تطلب مني أن أطرق جميع الأبواب كي أجد عملاً. هي لا تعلم شيئاً. هي لا تعلم أنني طرقتُ أبواب الأرض، وطرقتُ أبواب الفضاء، وانتظرتُ عند أبواب المجهول، وأبواب المعقول واللامعقول. فقد طرقتُ

أبواب مِهَنٍ لم أتصّور يوماً أنني قد أمتهنها، كنادل في مطعم شعبيّ، أو العمل مع "صبيان" المراكب في النيل... وأخرى... وأخرى.

لا عمل... وأمّي تتذمّر... وأعماقي تستاء من كل شيء. ماذا أفعل؟ في هذا الفراغ الشاسع وجدتُ وقتاً كافياً بعض الأحيان، ووقتاً غير كافٍ أحياناً أخرى كي أقيم علاقات صداقات وغرام مع نساء وفتيات، شأني شأن أيّ شاب في عمري. علاقات تبدؤها اللهفة والرغبة ويُنْهيها الملل. فالرغبة واللهفة تشعلان نيران العلاقات الغرامية والملل يطفئها.

هذا ما وجدته في علاقاتي مع نساء وفتيات عرفتهنّ قبل ذلك. فتيات ونساء من مصر وخارج مصر. وسامتي وصغر سنّي كانا السبب الرئيس لاستجابة النساء لرغباتي. ما أروع أن تكون وسيماً في معارك النساء الغرامية! هكذا كانت تسير علاقاتي السابقة مع النساء... في الاتجاه الذي أحدّده أنا. بمعنى آخر، باتجاه المتعة وعدم الالتزام.

أمشي في الطرقات. أشعة الشمس حارقة، والسيارات تغطي مساحات واسعة من الشوارع. أفكّر في جمانة، وأتوق إلى مغيب الشمس وبزوغ ضوء لقائها.

شعرتُ بالجوع. أشرتُ بيدي لسيارة أجرة كانت تقترب منّي. صعدتُ في السيارة متصبّب العرق. الجو شديد الحرارة، فطلبتُ من السائق أن يقوم بتشغيل التكييف في السيارة، لكنّ السائق أخبرني بأن

المكيّف لا يعمل. المكيّف لا يعمل، وأنا أتصبّب عرقاً، والسيارة تسير ببطء شديد بسبب الازدحام على الشوارع في ذلك الوقت من النهار... منتصف النهار تقريباً. إذاً الجوع، وشدّة الحرّ، والمكيّف الذي لا يعمل وسرعة السيّارة التي تحتضر. حتماً سيجتاحك الاستياء عندما تجتمع هذه الأمور معاً. أشعر بالاستياء الآن، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى الانتظار في هذه السيارة التي تنطلق منها حرارة الأفران.

سألني السائق:

- عايز تروح فين؟

"إلى أين أذهب؟ أنا جائع. سأتناول غدائي في أحد المطاعم"، قلت في أعماقي.

قلتُ بعد صمت:

- شارع طلعت حرب.

السيارة تسير بذلك البطء الذي يثير الاستفزاز. تستغرق المسافة نصف ساعة إذا كان الطريق خالياً. أما في ساعات الظهر فإنك تحتاج إلى ساعة أو أكثر كي تصل شارع طلعت حرب بسبب الازدحام.

أنظر من نافذة السيارة، والهواء الساخن يلفح وجهي، وأفكاري تتجه بحرارة وسرعة عجيبة نحو ذلك الفندق الذي تقيم فيه الفتاة

الشامية. أتساءل في أعماقي: "ماذا سأنال منها وهي تقيم في القاهرة لمدة يومين؟ أفكّر في خلوة تفجّر كل ما في أعماقي تجاهها. أفكّر كيف أصطاد لحظات دافئة معها. ففي الحبّ تجد نفسكَ تمتهن الصيد... صيْد الزّمن... صيْد الوقت كي يجمعك مع مَنْ تحبّ. السيارة تسير ببطء... وأفكاري الملغومة بالرغبة تسير بسرعة خيالية. أفكّر... وأفكّر، ثم أعود إلى ذلك السؤال: "كيف سأخلو بها؟"

الشوارع مزدحمة بالسيارات، ورأسي مزدحم بالأفكار. يبدو أنني لن أصل شارع طلعت حرب خلال ساعة في هذا الازدحام المتزايد. السائق لا يتحدّث، وأنا لا أتحدث. نسمع أصوات الناس على جانبي الشارع، وأصوات محرّكات السيارات. هذه هي القاهرة... صاخبة... مفعمة بالنشاط... لا تهدأ... لا تصمت. القاهرة، كما الحياة، دائمة الحركة.

رنّ هاتفي المحمول فجأة. رقم دوليّ. هذه صديقتي الكورية التي كانت في القاهرة قبل سنة. تطلبني هي بين الحين والآخر وتحدّثني بسعادة عميقة عن أيامنا معاً. هي لا تزال تذكرني. تذكرني وتطلبني. تعجبني رشاقة جسمها، واستدارة نهديْها الممتلئين. كيف تترك أثراً قوياً في أعماق امرأة بحيث تبقى في ذاكرتها سنين طويلة؟ سؤال وجّهته إلى أصدقائي مرّات عديدة. هم يجيبون: "بالجنس"، وأمّا أنا فإجابتي لا تختلف كثيراً عن إجابتهم لهذا السؤال المُحيّر وسهل الإجابة. كثيرة هي الأسئلة المحيّرة وسهلة الإجابة، مثل لماذا الزواج؟ ولماذا الحياة؟ ولماذا الموت؟ كيف تترك

أثراً قوياً في أعماق امرأة؟ إجابتي على هذا السؤال وإنْ تأخذ صيغة أخرى شبيهة لإجابة أصدقائي، لكنها تحمل في ثناياها اتجاهات متداخلة نوعاً ما. فجوابي هو أن تتفنّن في ملامسة الأنثى... بذلك تستدرجها إلى حضوركَ الذي يغدو حاجة ملحّة في أعماقها. التفنّن في ملامسة أعماق الروح والجسد معاً وفي آن واحد.

تحدّثتُ مع صديقتي الكورية الجنوبية باللغة الإنجليزية، وتناولتُ في حديثنا مواضيع خاصة كانت بيننا، مفترضاً أن السائق لا يفهم ما أقول. صداقاتي مع نساء غربيات ساعدتني على تقوية لغتي الإنجليزية التي تعلّمتها في المدرسة. ولكن... لماذا أفترض أنه لا يفهم ما أقول؟ هناك الكثير من خريجي الجامعات الذين لا يجدون عملاً، فيعملون سائقي سيارات أجرة. حتى وإن كان يفهم حديثي الذي غلّفته بلغة ثانية، فلا يهمّني ذلك على الإطلاق طالما الأمر يتعلّق بامرأة أجنبية. بالإضافة إلى ذلك، فهو لا يعرفني. رحتُ أتحدّث مع صديقتي بحريّة وسعادة. أتحدّث بحريّة لأن محتوى كلامي تغطّيه اللغة الإنجليزية. وأما السعادة فصديقتي الكورية ليست هي مصدرها. مصدر سعادتي هو ذلك اللقاء المرتقب على ضفاف النيل، في ذلك اليوم من أيام حزيران.

صديقتي كعادتها تسألني عن أحوالي في مصر. هذه المرّة لم يكن جوابي ككل مرّة. أخبرتها أنني في قمّة سعادتي. وما أن سمعت جوابي حتى فرّت ضحكات متتالية من فمها، ربما لأنها اعتقدتْ أنني سعيد لسماع

صوتها، أو لأنها تعتقد أنني أنتظر عودتها إلى القاهرة كي أخوض معارك شرسة بين فخذيها. أضحك في أعماقي على هذه الأفكار التي شعرتُ من خلال حديثها معي أنها تراودها. يُضْحكني الخيال الجامح أحياناً. هي لا تعلم أن سعادتي الآن مصدرها فتاة شامية... جميلة... رقيقة. فتاة من أحشاء الوطن العربي، وليست من شرق أسيا. فتاة ذات جمال طاغٍ... أرى كل أحلامي النّرجسية والشّهوانية في مرآة جسدها.

هي تضحك، وأنا أضحك ولكلّ منا سبب للضحك يختلف عن الآخر. يختلف سببا ضحكنا كما تختلف القارّتان اللّتان تحتوياننا. ضحكتي وضحكتها، وبين هذه وتلك، تنطلق سعادة، غير حقيقية، لسماع صوتها، ومعرفة أخبارها في بلدها، وذلك كي أجاريها. بعض الأحيان تجد نفسكَ مقحماً في مجاراة الناس، إن لم تكن في وضع كهذا معظم الأحيان. ولكن ما سبب هذا؟ ربما التكيّف مع أوضاع الآخرين.

ولكن ما حيّرني في تلك اللحظة هو سبب مجاراتي لامرأة كورية تفصلني عنها آلاف الكيلو مترات. هل لأنني لم أرغب في أن أخبرها عن علاقتي الجديدة؟ أم لأنني، كغيري من الرجال، تسكنني رغبة دفينة في أن يكون عدد كبير من النساء في حياتي بهدف التباهي الذي ينطلق من سعادة التملّك والانجاز؟ هناك الكثير من الرجال مّمن يعتقدون بأن وجود عدد كبير من النساء في حياتهم مدعاة للتباهي. لا أنكر هذا الاعتقاد على الإطلاق. فوجود عدد كبير من النساء في حياة الرجل إشارة

إلى وسامته، وأهمّيته، وقدرته الجسدية، ومكانته، وهذا في معظم الأحيان.

هي تضحك، وتطربني ضحكاتها في أوج هذا الحرّ الذي يثير استيائي. قلت لنفسي: "دع الناس يضحكون... لا يهّم الأمر الذي يثير ضحكاتهم. اتركهم يضحكون... يضحكون حدّ الانفجار. فلا أدعى من الحياة للضحك والسخرية والاحتقار."

هي تضحك وأنا أضحك، وأعماقي تردّد بيتاً شعرياً للمتنبي:

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لدى الزّمنِ

أخلاهم من الهَمّ أخلاهم من الفطن

لا أحبّ الشِّعر، وهذا هو البيت الشعريّ الوحيد الذي أحفظه منذ كنت في المدرسة. لا أحبّ الشعر مع أنني عندما التحقت بجامعة القاهرة كانت نيّتي هي أن أدرس الأدب العربي. كيف لا أحبّ الشِّعر وهو جوهر الأدب؟ هو فصل دراسيّ واحد في الجامعة، ثم انسحبت بسبب الأعباء المالية. والآن لا أجد عملاً. لا عمل ولا دراسة، فلماذا أبخل على نفسي بالنساء؟ المعادلة هكذا أفضل، وفيها ما فيها من توازن داخليّ. لا عمل ولا دراسة ونساء أفضل من لا عمل ولا دراسة ولا نساء.

الشِّعر. ما هو الشِّعر؟ بربّكم ماذا يفعل الشِّعر في بطالتي وبطالة آلاف الأشخاص إن لم نقلِ الملايين؟ عندما كان مدرّس اللغة العربيّة يسألني: "لماذا لا تحفظ المقرّر لك أن تحفظه من الشِّعر؟ كنت أجيبه بتلك الجرأة الساخرة: "يا أستاذ، الشِّعر ده كله كلام في كلام... والشعراء دوْل عاملين زيّ اللّي عايش في كوكب تاني." فيضحك زملائي في غرفة الصف، ويغضب المدرّس، ثم يقول متذمّراً: "مَنْ أنتَ كي تتحدّث هكذا عن الشِّعر؟" فأردّ ساخراً: "أنا المعري." ويردّ زميلي: "أنا أبو فراسي الحمداني" ويردّ زميل آخر. "أنا طرفة بن العبد." وتتعالى أصوات التلاميذ بأسماء الشعراء من مختلف العصور... العصر الجاهلي... والأموي... والعباسي.

هو المتنبّي الذي استقرّ في ذاكرتي ببيته الشعري:

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لدى الزّمنِ

أخلاهم من الهَمّ أخلاهم من الفطنِ

أضحك وأعماقي تردد بيتاً من الشِّعر يحقّر الضحك وينسف معاني الأمور الصغرى، ويصرخ بالجدّية وعمق الفكر. الله، ما أغربنا نحن بنو البشر!

انتهت المكالمة بكلمات اعتدتُ قولها، ولكن هذه المرّة لا أقصد ما تحمل هاتان الكلمتان من معنى. قلتُ لها ردّاً على قولها بأنها ستأتي إلى

القاهرة: "أنا انتظرك." قلتُ لها إنني أنتظرها وفي أعماقي أعلم أنني لا أنتظرها ولن أنتظرها. نحن معظم الأحيان، لا نقصد معظم ما نقول. ومع ذلك فنحن نقول ما نقول. اتجاهات الحديث عجيبة حقاً، تماماً كغرابة اتجاهات المشاعر.

عاد هاتفي المحمول إلى صمت غير مألوف عادة. فمكالماتي مع أصدقائي وصديقاتي من مصر وخارج مصر كثيرة. الآن هو صامت، ورأسي يَنزّ الأفكار كماء النهر. العمل... الفتاة الشامّية... أمّي واستيائها من تصرّفاتي.

نظرت أمامي فرأيتُ خطوطاً من السيارات. ثم نظرت إلى السائق. جبينه يتصبّب عرقاً. تارة يجفّف وجهه بيده، وبمنديل تارة أخرى. الجو شديد الحرارة كأنه فرن من صنع الطبيعة. التكييف... أين التكييف؟ كان يجب عليّ أن أسأل عن التكييف قبل أن أصعد في السيارة.

هنا، نحن نقترب من ميدان التحرير. هي دقائق وأصل المكان. شارع طلعت حرب. أرغب أن أصل بسرعة. سينقذني الوصول من هذا الحر الشديد.

دفعتُ أجرة السائق. خمسة عشر جنيهاً مصرياً.

وصلت شارع طلعت حرب. نزلتُ من السيارة استنشق هواء ساخناً. هواء معطرّ برائحة القاهرة العريقة.

أشق طريقي بين الناس في شارع طلعت حرب، حتى وصلت أحد المطاعم التي تقدّم الكشري. طبق الكشري يشتهر به المصريون، ويفضّلهُ الكثير من ضيوف مصر. المطعم مليء بالناس. لا أعرف أحداً منهم.

رائحة الكشري شهيّة. أتناول طعامي الآن بعد الحرّ في مطعم فيه تكييف. أشعر بجوع شديد، والطعام لذيذ. أتناول طعامي وحيداً في مكان مملوء بالناس. هكذا أنت أيها الإنسان. وحيد حيثما حلَلْتَ. وحيد بما فيكَ. وحدة تنضح بالوحدة. وحيد أنا بين كل هؤلاء. ينتابكَ شعور بأن الآخرين لا يعنيهم أمركَ عندما تكون وحيداً في مكان مملوء بالناس. لا يعنيهم أمركَ ولا يعنيك أمرهم. ما أصعب أن لا يهمّ أمركَ أحداً. ولكن لماذا أشعر هكذا الآن؟ أيعقل أن لا يهمّ أمري أحداً ومكالمات الأصدقاء والصديقات تكاد لا تتوقف؟ ألم تصلني قبل قليل مكالمة عبرتِ القارات كي تستفسر عن حالي؟

طبق الكشري لذيذ... يشدّ كلّ تفكيري في هذه اللحظة. فلا يشدّ تفكير جائع غير الطعام. الكشري طبق بسيط، لكنه لذيذ. رائحة الطعام تخترق أنفي، وأصوات الأطباق والصحون تقرع أذنيّ، والناس يتحدثون... يضحكون... يأكلون... يشربون.

رنّ هاتفي المحمول بعد أن أنهيت طعامي. اعتقدتُ أنها جمانة... لكنه ليس رقمها. هذا رقم صديقي سامي. سامي طالب فلسطينيّ، يدرس فلسفة وعلم ونفس في جامعة القاهرة. هو من مدينة رام الله، يقيم في شقّة مفروشة في مدينة نصر التي تبعد ساعة بالسيارة تقريباً عن ميدان التحرير. طالب في سنته الثانية. حين أتحدّث إليه تنتابني رغبة شديدة في العودة إلى الجامعة كي أكمل تعليمي وأحصل على شهادة جامعية، لكنّ الظروف المالية تحول دون ذلك. أرغب في الحصول على عمل كي أتحمّل نفقات الدراسة في الجامعة. لكن لا عمل... ولا جامعة. أيامي تمرّ بلا عمل... بلا تعليم... ولكن هناك فتيات والنساء. هو يحسدني على النساء اللاتي يُحْبِبْنَني، بينما أحسده أنا على تعليمه. التعليم الجامعي قد يوفّر فرصة عمل مناسبة. يسألني بين الحين والآخر: "كيف تجعل النساء يُحبِبْنك؟" أجيبه مازحاً: "سرّ المهنة". حدّثني ذات مَرّة عن قصة حُبّ فاشلة مع فتاة من رام الله، وذلك قبل أن يأتي إلى مصر كي يدرس. هو أحبّها بحرارة الحرائق، بينما هي كانت باردة برد الثلج معه. كان حبّاً من طرف واحد. ربّما معظم قصص الحبّ من طرف واحد. بعض الأحيان، نتعثّر بأشياء صغيرة، فتوقعنا.

قلت:

- ألو... أين أنتَ؟

أجاب سامي:

- بالقرب من ميدان التحرير.

قلت:

- أنا في المطعم الذي نتناول فيه الكشري معاً...

قاطعني:

- سأكون معك بعد دقائق.

وضعت الهاتف المحمول على الطاولة أمامي. نظرت إلى ساعة يدي. تجاوزت الثالثة. هذا يعني أني سأبقى مع صديقي ثلاث أو أربع ساعات تقريباً، ثم أذهب كي ألتقي بها. أتوق إليها... أتمنّى أن أنال كلَّ ما في جسدها، أو أنال بعضاً من كل ما فيه. أثناء التفكير في جمانة، يصلني ما يصلني من كلام وضحكات الناس في المطعم، وأصوات الأطباق والملاعق بشكل فوضويّ، لا تناغم فيه.

ما الفرق بين تناول الطعام هنا أو في البيت؟ لو تناولتُ طعامي في البيت لَما توقّفتْ أمّي عن تذمّرها من حياتي دون عمل، ومِنْ علاقاتي المتشابكة مع الفتيات. علاقات أنا أهواها ولا أستطيع التوقّف. يبدو أن هذا الأمر خرج عن السيطرة. سيطرتي أنا. تناول الطعام هنا أفضل. فهؤلاء الناس لا يهمّهم أمري ولا يهمّني أمرهم. لا يعرفونني. تتذمّر أمّي من حياتي بدون عمل كأنني أنا الوحيد الذي لا أجد عملاً. ألا تدري هي أن

آلاف الآلاف من الناس لا تجد عملاً. الله... الله... يا مصر العظيمة. أبناؤكِ في حاجة إلى سخائكِ... فجودي. جودي يا أمّ العطاء والكرم.

تُقْرعُ الصحون كما الأجراس... تنتشر رائحة الطعام... وتتعالى الأصوات كأنّ المكان يصرخ بالجوع. يشرد ذهني مُنَقِّباً في أعماق الأفكار في رأسي. ماذا أفعل كي أجد عملاً؟ متى أعود إلى الدراسة في الجامعة؟ وماذا أنا فاعل مع هذه الأنثى الشامية التي هبطت هبوطاً مفاجئاً كطائرة، في مطار قلبي، وميناء جسدي؟ ألا ليتَ الوقت يسعفني، ويسعف رغبتي فيها. لماذا يومان؟ كيف سيسعف الوقت رغبتي فيها في هذا الشُحّ الزمنيّ؟

وصل سامي حاملاً، كعادته، مجموعة من كتبه الدراسية.

جلس قبالتي وقال ضاحكاً:

- أأكلتَ الطعام كله؟ ألم يبقَ لي شيء. أتضوّر جوعاً.

قلتُ:

- كنت أتناول طعامي عندما اتصلت بي.

طلب سامي طعامه الذي أحضره النادل بعد بضع دقائق.

قال سامي بعد أن تناول بعضاً من طعامه:

- جئتُ من جامعة القاهرة إلى هنا. محاضرة الفلسفة التي كنت فيها قبل قليل معقّدة. أشعر بالدوار منها...

قاطعته:

- من المحاضرة أم من الجوع؟ قال:

- من المحاضرة والجوع معاً.

ضحكتُ ضحكة عميقة، ثم قلت متعّجباً:

- من يدرس فلسفة هذه الأيام؟! لهنّ العُذْر الفتيات اللواتي يهرْبنَ منكَ. فَمن سيحبّ شخصاً غارقاً في تعقيدات الحياة، وطلاسم الفلسفة؟ الفتيات يحبِبْن المرح والفكاهة والدعابة واللهو... اسألني أَنا...

قاطعني ضاحكاً:

- مختص أنت بالفتيات وشؤونهنّ. أحسدك على شَغفهنّ بكَ.

قلت:

- لا أحبّ الفلسفة وعلم النفس.

قال:

- الفلسفة ليست أفكاراً ونظريات تحتويها الكتب. هي في جوهر حيواتنا، وفي أطرافها ومشارفها.

سألتُ متأثراً بكلامه:

- أتعتقد هذا؟

قاطعني:

- ولا أعتقد شيئاً غير هذا.

رحتُ أنظر إلى مجموعة الكتب الموضوعة على الطاولة أمامنا. أربعة كتب. كتاب عن أرسطو، وكتاب آخر عن أفلاطون، وكتاب ثالث لشاعر مصري، ديوان "شريعة الأعزل" لأحمد زرزور. وأما الكتاب الرابع لكاتب غربيّ اسمه "ديل كارنيجي". كتاب "دع القلق وابدأ الحياة". شدّني العنوان. رحت أردّد في أعماقي عنوان الكتاب، "دعِ القلق وابدأ الحياة". أمسكتُ بالكتاب وقلبت بعض صفحاته. "هذا الكتاب يصلح لكل إنسان"، قلت في نفسي. فما أكثر القلق في حياتنا! وكثيرون هم مَنْ يرغبون في الخروج من مستنقعات القلق كي يبدأوا الحياة. تُرى ماذا يقول لنا مُعلّمنا الكاتب في كتابه هذا كي نتخلّص من القلق ونبدأ حياتنا؟ سألت في أعماقي.

توقّف سامي عن تناول الطعام، ونظر إليّ، ثم إلى الكتاب بين يديّ.

أطال النظر إلى الكتاب، ثم قال بابتسامة مغلّفة بالسخرية:

- "دع القلق... وابدأ الحياة". لكنّ كارنيجي لم يدعِ القلق... وترك هو الحياة.

رمَقته بنظرات متسائلة، ثم قلت:

- كيف ذلك؟ لا أدري ماذا تقصد.

قال:

- مات ديل كارنيجي منتحراً.

فغرتُ من الدهشة فاهي، ثم رحت أقول في داخلي متعجّباً متسائلاً مدهوشاً. "مات منتحراً؟! أيمكن ذلك؟!" هو الذي أَلَّفَ كتاباً عن الحياة، وحُبّ الحياة، ومحاربة القلق والحزن يموت منتحراً؟! كيف كل هذا؟! ليتني أدرك ما أسمع. لا يُعقَل أنه اتخذ قرار الانتحار فجأة. حتماً إن الحزن اجتاحه، وَتمكّنتْ منه الكآبة، ونال اليأس منه كلّ منال، فانتهى الأمر به إلى الانتحار.

صَمَتُّ قليلاً، فقد أخرسني كلامه، وشَلَّ لساني عمقُ الدهشة.

قلت وقد غلّفتْ وجهي غَيْمة داكنة من الاستغراب:

- مات منتحراً؟! ينتحر من يُعلّم الناس كيف يتخلّصون من القلق والحزن ويبدأون الحياة؟! أمر يصعق التصديق.

قال سامي:

- النفس البشرية معقدّة جداً، ولا تستطيع آلاف الكتب كَشْفَ خفاياها، ولا الغوص في مجهولها أو اختراق مكامنها.

أخذتُ نفساً عميقاً، واضعاً كتاب محاربة القلق والحزن على الطاولة. فكيف ستتعلّم كيف تحارب الحزن والكآبة من شخص تمكّن الحزن منه وعصفتْ به عواصف الكآبة؟ ما أغرب هذا العالم!

قلت بعد صمت غلّفني، وبدهشة:

- كلامكَ يثير الحزن والكآبة. أنا سعيد يا صديقي، ولا أريد كلاماً يُفْسد سعادتي. هناك أشياء رائعة ستحدث بعد ساعتين. فلماذا تصعقني بتعقيدات الفلاسفة، وتحدثني عن الأمراض النفسية، وتحمل كتباً يملأ صفحاتها الاكتئاب والحزن؟

سألني بعد أن أنهى طعامه:

- وماذا سيحدث معك بعد ساعتين؟

لم أجد حرجاً في أن أخبره أنني سأكون مع فتاة جميلة. فهو لا يعرفها، ولم تكن عندي النيّة في أن أخبره عن اسمها أو بلدها. هو يدرك تماماً أنني أحبّ النساء وسعادتي، كأيّ رجل، معهنّ، ومعهنّ فقط. هذه الرغبة الأزلية الأبدية تحرّكنا وتسيطر علينا بطريقة عجيبة. رغبة جسدية قوية لا ندرك كنه أسرارها. أحبّ النساء... لكنْ لا أدري لماذا أشعر أن هذه الفتاة ليست كغيرها مِمّن سَبْقنَها من النساء في حياتي.

قلت باقتضاب وبعد صمت:

- لقاء غراميّ.

لم يسألني مع مَنْ. وأعجبني أن لا يسأل. حتى الأشياء التي لا تجد حرجاً في قولها تجد نفسك غير راغب في قولها بعض الأحيان. عادة لا أجد حرجاً في أن أخبر صديقي عن فتاة أحبها وامرأة أشتهيها، لكنني في تلك اللحظة لم تغلّفني رغبة الكلام. هو لم يسأل، ربما لأنه غير مهتمّ بأمر علاقاتي الغرامية، أو أنه يعتبر ذلك أمراً خاصّاً لا يمكن الخوض فيه. هو لم يسأل، ولكني رأيت ابتسامة تشجيعية على وجهه، كأنه يقول لي: "استمتع بلقائك الغراميّ".

قال مغيّراً مجرى الحديث:

- اشتقت إلى الأهل في رام الله.

قلت:

- ألا تتصل بهم؟

أجاب:

- أحدّثهم على الإنترنت، وأحياناً بالهاتف.

قلت:

- هذا الإنترنت يُقَرّب البعيد حقّاً.

راح سامي يحدّثني عن أهله، وبالتحديد عن والده الذي استشهد في عام 1991، وكان سامي قد تجاوز السنة بشهرين في ذلك الوقت. أمّه أخبرته عندما كبر كيف استشهد والده. ومنذ ذلك الحين أصبحت قضيّة الموت تشغل تفكيره. يردّد هو بين الحين والآخر، "لماذا الفناء؟" أفكّر أنا ساخراً في جواب على سؤاله هذا بقول صامت: "كي لا تضيق الأرض بِمنَ فيها؟"

هو يتحدّث عن الموت كثيراً، والموت أَخْذ. بينما أنا أحبّ الحياة، فالحياة عطاء. كان لاستشهاد أبيه وعدم رؤية أبيه إلاّ في الصور السبب الرئيس لحزنه الدفين في أعماقه.

سألني:

- هل تعتقد أن الموت شقاء للأحياء؟

ضحكتُ من سؤاله.

كنت سأقول له: "وَمَنْ أنا كي تسألني هذا السؤال؟" لكنني قلت متذمّراً من سؤاله:

- بربّك هل هذا سؤال تسأله لشخص أخبرك قبل قليل أنه سيذهب من أجل لقاء غراميّ؟ الموت؟! الموت في وقت كهذا؟!

ابتسم، ثم ضحك. ضحك بصوت عالٍ، فنظر بعض الناس في المطعم إليه، ثم إليّ. لا يدرك هؤلاء أن الموت هو سبب ضحكنا. أيمكن أن يتخيّل هؤلاء الناس فكرة أن يكون الموت سبباً للضحك؟! متى يكون الموت سبباً للضحك؟ ربما عندما يصطدم بقوّة الحبّ. مَنْ يفكّر في الموت في أوج مشاعر الحبّ والرغبة؟

نظرتُ إلى ساعة يدي. خمس عشرة دقيقة بعد السادسة. جسدي هنا، بينما تفكيري هناك... على كوبري قصر النيل وما يحتفظ هذا المكان بلحظات مضتْ، ولحظات دافئة ستأتي. هناك بين همسات النيل... وفي أحضان انسياب مياهه سألقاها.

قال سامي بعد ضحكات متتالية:

- سأتركك تستمتع بلقائك الغراميّ... أما أنا فسأذهب كي أكتب بحثاً حول الآراء الفلسفية لأرسطو.

حمل كتبه، ودفع ثمن طعامه، وغادر المكان متوجّهاً إلى شقّته المفروشة في مدينة نصر.

أمّا أنا فبقيتُ في المطعم وحيداً بين كلّ هؤلاء... وحيداً برغباتي واشتهاءاتي، وبتفكير عابر لقارّات أحلامي المؤجّلة. وبين التفكير في ذلك اللّقاء المُرتقب ومراقبة هؤلاء اللذين يدخلون ويخرجون من المطعم مضى الوقت، واقتربت همسات اللقاء بها.

* * *

أنا الآن على كوبري قصر النيل، والساعة تجاوزت الثامنة بخمس دقائق.

أقف مراقباً... ملتفتاً... وأنتظرها.

أقف متسمّراً عند تمثال ضخم لأسد عند أول الكوبري. بعض الناس يلتقطون الصور بوساطة هواتفهم المحمولة. أعتلي الكوبري توّاقاً إليها، وإلى المكان الذي جمعنا.

تتكاثر أعداد الناس على الكوبري بعد غروب الشمس. فهو مكان للسامرين والعشّاق. الكوبري، وهمسات النيل، وانسياب مياهه. الناس... وأصوات محرّكات السيارات تقرع الآذان... وليل القاهرة المتلألأ

بالأنوار متعدّدة الألوان. وإضافة إلى كلّ هذا، دفء بلقائها. كلّ ما أفكرّ فيه الآن. "كيف أخلو بها بين هذه الجموع من الناس؟"

هي حتماً ليست بين هؤلاء الناس الموجودين على جانبي الكوبري. فلو كانت بينهم لهاتفتني. فهي لا تعرف أحداً هنا. "هي تأتي من أجلي... من أجلي أنا فقط. أنا شراع قاربها الذي يحرّكها." قلت لنفسي.

نفد صبري... نفدت لحظات الانتظار. لهفتي عليها دفعتني إلى طلب رقمها. ردّت بسرعة كأنها تتوّقع الاتصال. يبدو أنها تنتظرني كما أنتظرها.

قلتُ بلهفة:

- أنا هنا على الكوبري. أنتظرك...

قاطعتني باللهفة ذاتها:

- أنا قادمة... سأكون معك بعد خمس دقائق تقريباً.

خمس دقائق... فترة طويلة في حسابات العشّاق والمحبّين. فكم نبضة انتظار ينبض القلب في خمس دقائق؟ ما يزيد عن ثمانين نبضة كلّ دقيقة. معنى ذلك، ما يزيد عن أربعمائة نبضة انتظار، ونبضة لهفة... ورغبة في خمس دقائق. ما أبعد المسافة...! وما أقرب اللهفة! اللّهفة عليها قريبة قُرْب الروح للجسد.

وقفت أتأمّل مياه النيل. لامعة هي... غامضة بجمالها. ترتفع عيناي قليلاً إلى المراكب وأضوائها التي تخترق عتمة النيل الجذّابة. أتخيّل صورتها المشرقة في وجه النيل اللامع. أتصوّرها، وأتخيّل ماذا سأقول لها، وماذا سأفعل معها. هل يمكنني أن أبني علاقة عميقة في وقت قصير... وقت يهاجم الرغبات؟ يومان؟!

وبينما كان تفكيري يرسمها بريشة الذّاكرة على صفحات النيل... سمعت صوتاً يتغلغل في الخلايا والشرايين. ما أروع صوت مَنْ نُحبّ! صوت فيه حرارة... فيه بقاء... فيه تشبُّث بالحياة. هو صوتها.

سمعتها تتساءل:

- أنت هنا؟

التفتُّ والسعادة تنساب في أنهار شراييني كانسياب مياه نهر النيل الخالد. كانت تقف إلى جواري... تقف ببهائها وجمالها. فتاة تختزل كل مظاهر الجمال، وعناصر السِّحر. لم أتمالك أن أمسكتُ بيدها، وابتسامات وضيئة تتلألأ على وجهْينا.

هي...

هي الآن معي...

ونسائم النيل تُباركُ مُتعة اللّقاء.

رحنا نمشي على الكوبري... كوبري قصر النيل. هذا المكان الذي انطلقتْ منه صُدْفَة اللّقاء. كوبري قصر النيل يجمع الآن بين المصادفة والتخطيط. فلقاؤنا السابق جاء مصادفة عجيبة بجمالها، والآن فيجمعنا لقاء خطّطتُ له، وأعدَدْتُ ترتيباته.

الله...

الله أيها النيل...

يا حاضن أسرار العشّاق.

اكْتُبْنا في صفحات تاريخكَ...

واجعلْنا ذاكرة غراميّة... وذاكرة سرّية.

في أعماق صمتكَ المنساب.

أشعر بسعادة ونشوة اللقاء، وكذلك بدتْ هي. عيناها تتوهّجان سعادة كما المصابيح.

قلتُ والسعادة تغمرني:

- وحشتيني... وحشتيني جداً.

قالت ضاحكة:

- وأنت أيضاً.

قلت بلهفة:

- لم أنم ليلة أمس...

قاطعتني مبتسمة:

- ألم تَنم؟!

أجبتُ:

- لم أنَم.

سألتني بِنَبرة مَنْ يعرف السّبب:

- ولماذا؟

هي إذاً تريد أن تسمع الجواب، وأدرك تماماً أنها في أعماقها تعلم السّبب. هناك مَنْ يسألكَ عن أشياء يدركها هو تماماً كي يستخرج كلَّ ما في أعماقكَ. ماذا أقول لها؟ كيف أفرد كلّ مفردات جرأتي الشهوانية أمام فتاة جمعْتني الصُّدفةُ معها أمس فقط؟ كيف أفرد أمامها لوحات خيالي الشرس بها، ونَهْم عشق لا يطاله الشّبع؟ أأقول لها إنّني كنتُ أتخيّلها في أحضاني... أقبّل كل أجزاء جسدها بشراهة... بنهمٍ؟ أم أقول لها إنّني كنت أعرّيها... أُلْبِسها... ثم أعرّيها... وأفعل كلّ ما يحلو لي

بها... وفي كلّ الوضعيّات؟ أم أكتفي بقول "إنني كنت أفكّر فيها"، وأترك لها الأمر كي تتخيّله هي كما تريد؟ آثرتُ الخيار الثالث، تاركاً إياها أن تتخيّل هي ما تريد.

قلت مبتسماً:

- كنتُ أفكّر فيكِ...

قالت ضاحكة، كأنّ كلامي زادها سعادة:

- كنت تفكّر فيّ؟

أترك لخيالها أن يتصوّر كيف كنت أفكّر فيها. أيمكن لخيالها أن يسلك جميع مسالك رغبتي فيها، ويجوب اتجاهات غرامي لها؟ لي ما لي من خيال شبقيّ، ولها ما لها، ولكن ما يهمّني في هذه اللحظة أنها معي. أعجبتْني سعادتها المنتشرة على وجهها كما تنتشر رائحة الورود في الهواء.

قلتُ بعد صمت:

- أيعقل أن أراكِ وأنتِ على وشك المغادرة؟ أي حظّ هذا؟

ارتسمت ابتسامة شاحبة على وجهها وقالت:

- كنت أتمنّى أن تطول أيامنا معاً...

قاطعتها متمنّياً:

- ليتها تطول. لكنّكِ حتماً ستعودين إلى القاهرة.

لم أدرِ لماذا شعرتُ بحتميّة عودتها إلى القاهرة.

قالت:

- هذا ممكن.

"ممكن" هذه لم تعجبني كثيراً. كنتُ أتمنّى أن اسمع: "حتماً سأعود". لكن على الرغم من ما كان يلفّ هذه الكلمة من خيبة أمل فقد شعرتُ بشيء من الارتياح. فكلمة "ممكن" أفضل من كلمة "لا".

توقّفنا فجأة على جانب الكوبري الصاخب بأصوات السيارات، وأصوات الناس. مياه النّيل تشدّنا نحو التأمّل. يدي بيدها، واقترب منها متعمّداً، بين الحين والأخر. تستقطبني جاذبيّتها، ويستقطبنا سِحْرُ النيل، وليل القاهرة الأخّاذ.

رنّ هاتفي المحمول فجأة. نظرت إلى الرقم. رقم دوليّ. رقم إحدى صديقاتي تطلبني من وراء البحار... من بريطانيا. بعد أن سألتني عن حالي، أخبرتني أنه يمكنها أن تساعدني في انجاز بعض الوثائق الرسمية الخاصة بالسفر إلى بريطانيا. كنّا قد تحدّثنا أنا وهي عن إمكانية سفري إلى بريطانيا، والإقامة هناك، وذلك قبل عام. والآن هي في بريطانيا، وأنا في مصر. لم تعد تعنيني بريطانيا، ولم تعد فكرة السفر خارج مصر في

رأسي. صديقتي البريطانية تهمس في أذني، وحبيبتي الشامية تقف إلى جواري، وقبل أيام كانت صديقتي الأمريكية تتحدث عن روعة أيامها معي. تحوطني النساء. تجتمع السعادة والنساء معظم الأوقات. لم أدرِ لماذا خطر في بالي سامي في اللحظة التي كنت أتحدّث فيها مع صديقتي البريطانية. هو لا يتوقّف عن الحديث عن أرسطو وأفلاطون، وذلك الكاتب الأمريكي، ديل كارنيجي، الذي كان ينادي بالأمل والحياة، ثم انتحر. لا أدري كيف ينتحر مَنْ ينادي بالحياة والأمل. أهو يعلّم الناس أمراً لا تحتويه معتقداته؟ غارق في تعقيدات الفلاسفة. لو عرف سامي متعة أن يكون هو مع أنثى لألقى بكتب الفلسفة في النيل.

انتهت مكالمتي مع صديقتي البريطانية دون أن يثير حديثها معي اهتمامي. كنت أهتمّ بمكالماتها في السابق، والآن لم أعد أهتمّ.

لماذا؟ لماذا لم أعد أهتمّ؟ أهي حبيبتي الشامية التي مَحتْ كلّ ما كان بممحاة جمالها وجاذبيّتها؟ ربما هي... وربما كلّ شيء... وقد يكون لا شيء. لم أدرِ.

سألتني بعدما سمعت حديثي مع صديقتي البريطانية.

- أهذه صديقتك؟

أجبتُ مبتسماً:

- أجل صديقتي.

لم أجد حرجاً في أن أخبرها عن صديقتي البريطانية، ربما كي أخبرها بطريقة غير مباشرة أنني أثير رغبة النساء، اعتقاداً منّي أن هذا سيزيدها تعلّقاً بي. هذا ما أردته حقّاً. أن أصطادها... أن أصطاد قلبها. على غير توقعّي، هي لاذت بالصمت، كأنها أدركتِ الآن أنها واحدة ضِمن قائمة طويلة من النساء في حياتي، وربما جال في ذهنها أن ما أقوله لها أقوله لغيرها من النساء اللواتي عرفتهنّ. وإن كان هذا اعتقادها، فلن تجد هي ما يميّزها عن غيرها. عندما لا يفكّر الرجل في الزواج، فإنّ مَنْ يلتقي من النساء أو الفتيات ما هنّ إلاّ لحظات متعة، سرعان ما تنقضي. ما معنى أن تكون امرأةٌ لحظةً في حياتك؟ أنثى اللحظة. تحليل لا يسرّ. هذا ما نريده، نحن الرجال، عندما نفكّر في نساء لا نتوقّع الزواج منهنّ. أيمكن أن يكون هذا الأمر قد خطر في بالها؟ هل أخطأتُ عندما ردَدْتُ على اتصال صديقتي البريطانية؟ ألم يكن من الأفضل أن أتجاهل اتصالها، خاصة وأنها تبعد عني آلاف الكيلو مترات؟ ما الذي جعلني أردّ على اتصال صديقتي؟ هل ستتعلّق بي حبيبتي الشامية بالردّ على اتصالات صديقاتي أم ستهرب مني؟ لم أعد أستطيع أن أحدّد.

سألتْني كأنها أرادت أن تعرف مدى عمق علاقتي مع صديقتي البريطانية:

- منذ متى تعرف صديقتك هذه؟

أجبتها ضاحكاً:

- منذ سنة.

سألتني مرة أخرى:

- ولماذا أتتْ إلى مصر؟

أجبتها:

- سياحة.

غرقتْ في الصمت. توقفت أسئلتها، ربما لأنها اعتقدتْ أن علاقتها السطحية بي لا تجيز لها أن تخوض في تفاصيل حياتي، وشؤوني الخاصة. وقد يكون عدم اهتمامها بشؤوني الخاصة سبباً آخر لتوقّف أسئلتها.

لم أرَ حزناً أو غيرة في وجهها. يبدو أن شؤوني الخاصة وعلاقاتي الغرامية لا تثير اهتمامها أو غيرتها. ولكن لماذا تمشي معي وتلتقي بي؟

اشتدّت قبضتي على يدها، ثم قلت:

- سنمشي حتى نهاية الكوبري.

ضحكت، ثم قالت:

- أحب المشي.

بينما كنّا نمشي، يدي بيدها، سألتها فجأة:

- هل تحبين الأفلام المصرية؟

أجابت بسرعة:

- الأفلام الحديثة لا تثير اهتمامي، لكن هناك ممثّل سينمائي أعتبره أنا أجمل وأروع ما في السينما المصرية. محمود عبد العزيز.

قلتُ معجباً بذوقها في الفنّ المصري:

- محمود عبد العزيز فنّان رائع...

قاطعتني بلهفة:

- أحبّ أن أشاهد كلّ أفلامه. تعجبني روحه المرحة. فنّان جميل. كان جذاباً وسيماً وهو شاب، ولا يزال جذاباً رائعاً.

تحدّثت بإسهاب عن هذا الفنّان، وراحت تذكر أسماء أفلامه، وعن إعجابها الشديد به. ولو أنّني أدرك تماماً أنها لم ترَ هذا الفنّان إلاّ على شاشات التلفزيون والسينما لقلتُ أنها غارقة في عشقه. هي تتحدّث عنه دون توقّف، كأنه رجل مصر الوحيد.

سألتها:

- أإلى هذا الحدّ أنتِ معجبة به؟

أجابت باندفاع:

- أكثر مما تتصوّر...

قاطعتها مبتسماً، لكنني مستاء:

- بدأت أشعر بالغيرة منه.

قالت ضاحكة:

- أتغار من شخص لم أرَه شخصياً، ولا أعتقد أنني سألتقي به؟ هو شخص نراه عن بُعد... على الشاشات فقط. ليتني أراه شخصياً، وأحدّثه عن شدّة إعجابي به.

قلت مستغرباً من إعجابها الشديد به:

- لكنه كبير في السن الآن...

قاطعتني:

- جاذبيّة هذا الفنّان تهزم سنين عمره.

قلت مستاءً من حديثها المتواصل عن الممثّل المصري:

- ألا تشعرين أنك تتحدثين عنه كثيراً؟ تتحدثين عنه أكثر مما ينبغي.

ضحكتْ، كأنّ غيرتي من ذلك الفنّان أثارتْ سعادتها. الغيرة شعور مؤلم يطعن مَنْ يشعرون بها، وقد تثير سعادة مَنْ نغار عليهم لأنها مؤشّر لهم على أنهّم اخترقوا أعماق أعماقنا حُبّاً. أهي تشعر بالسعادة

حقّاً بسبب غيرتي عليها، أم تستطيب أوجاع الغيرة التي شعرت بها في تلك اللحظة؟

قالت مازحة، وبشكل مفاجئ:

- لماذا لا نذهب معاً إلى أسوان؟

قلت ضاحكاً:

- أسوان؟ في هذا الوقت؟

قالت:

- أعلم أنّ أسوان بعيدة عن القاهرة، ولكن أحبّ الريف المصري.

ساعات الليل تمرّ، وهي تتحدّث عن شغفها بالممثّل المصري، محمود عبد العزيز، ثم تخوض حديثاً طويلاً عن إعجابها بالريف المصري، وأسوان. أما أنا فلا أتوقّف عن التفكير في مفاتن جسدها، وعناقها وتقبيلها. كيف أخلو بها وأنال ما أشاء منها؟ كيف كل ذلك ورحيلها عن مصر فاغر فاه؟ كيف ذلك وهي يشغلها الريف المصري، بينما تحتدم في جسدي رغبتي فيها؟ "كيف أخلو بها"، رددتُّ في أعماقي. فالقاهرة لا تغفو... لا تغمض جفنيْها. أيمكنك أن تخلو بامرأة في مدينة لا تنام؟

نحن نمشي، والناس تزداد على الكوبري، كأنّ رغبة السماء تسير بما لا تشتهي رغبتي. يا لسوء حظّي! أيعقل أن يصعقني كل هذا الجمال دون أن أفعل شيئاً؟

أتوسّل إلى القاهرة أن تنام قليلاً كي تستيقظ ثورة رغبتي في جسد هذه الفتاة. لكن القاهرة لا تستجيب. فاليقظة طَبْعُها... والنشاط روحها.

وجدتُ نفسي فجأة أناقش شؤون أسوان، حرارتها... فنادقها... طبيعتها. هي الآن تديرني في الحديث. أتحدثُ عن أسوان في الوقت الذي تشتعل فيه الرغبة في داخلي. فلساني يجاري حديثها، بينما الرغبة فيها تحوط أعضائي من كل جانب. أصبحتُ مفصول الأعضاء شَغَفاً بها.

أعلم أنها كانت تمازحني عندما تحدّثتْ عن رغبتها في السفر إلى أسوان. فلا يُعقَل أنها تفكرّ في الذهاب إلى أسوان وهي ستغادر مصر بعد يوم أو يومين.

بدا الكوبري في أبهى صُوَره، كأننّي أعتليه للمرة الأولى في حياتي. هي تنظر إليّ بين لحظة وأخرى، وتبتسم. ابتسم في وجهها ردّاً على ابتسامتها كي أُظهر لها أنني في أسعد لحظات حياتي. لكنْ، في الحقيقة، لا يمكنكَ أن تكون في أسعد لحظات العشق دون أن تلتهم شيئاً من مائدة الحُبّ والرغبة. فأمام كلّ هذا الجمال تكون أسعد اللحظات عندما

أفترش جسدها المغوي، وأغرق في بحر تفاصيله، وأتيه في مكامنه. فلا أجمل من التيه في مكامِن الرغبة والإثارة.

أخذتُ نفساً عميقاً. اقتربنا من نهاية الكوبري.

قلت بعد صمت:

- أسوان التي ترغبين في زيارتها شديدة الحرارة في هذه الأوقات.

ردّتْ قائلة وضحكة رائعة تنتشر على وجهها الوضّاء سعادة:

- تذيبني الحرارة هناك فأختفي...

قاطعتها بسعادة عميقة:

- لا أجمل من الذوبان في حرارة الحُبّ.

ابتسمت، ثم قالت:

- لا أريد أن نبتعد كثيراً.

هي لا ترغب في الابتعاد عن منطقة الفندق. أما أنا فأرغب في أن أجوب شوارع مصر كلّها معها، كي يراني كل الناس مع هذا الجمال، كي أكتبها حبّاً، متألقّاً، خالداً، على صفحات أرض مصر التي لا تستقطب إلاّ الجمال والروعة. ما أعظمكِ يا مصر!

أتمنّى أن أتيه في شوارع القاهرة عشقاً، لكنّ الوقت يسحق أمنيتي ورغباتي. هي تخشى أن تبتعد عن الفندق. ربما تخشاني، وقد تكون تخشى أن لا أكون قادراً على حمايتها.

قلتُ كي أنسف جبال مخاوفها:

- لا تخشي شيئاً وأنتِ معي.

قالت، كأنها لا تريد أن تخوض في أسباب عدم رغبتها بالابتعاد:

- أنا لا أخاف من شيء. لا يمكنني أن أخشى شيئاً وأنا في هذه المدينة الآمنة... الرائعة. القاهرة سيّدة المدن. لكنني لا أريد أن أتأخر.

"ما أجمل كلامها النابض بالرقّة والعذوبة"، قلت في أعماقي. هي لا تريد أن تتأخر. هي تعزف على وتر المغادرة، وأما أنا فأعزف على وتر البقاء. المغادرة تجول في تفكيرها، والبقاء معها يتشبّث في تفكيري. أيمكن للحب أن يقيم جسراً قوياً بين تفكيري وتفكيرها في هذه اللحظة؟

وبين هذه التساؤلات، وجدتُ نفسي أستدير كي لا نبتعد عن منطقة الفندق. لا أرغب في مضايقتها. نمشي ببطء متعمّد، وذراعي تخاصرها. أتمنّى أن أشدّها نحوي بتلك الرغبة الثّملى. ذراعاي حول جسدها، صدري يلتصق بصدرها. عندئذ فقط، يحلو السَّمَر بنبيذ العشق.

صوتها يوقظني من سكرات الرغبة والنشوة. أَسَعَدُ... أنتشي، ثم أعود من نشوتي إلى السّعادة الأولى. ما سرّ دورة السعادة هذه؟!

كيف ستكون حالي عندما تغادر القاهرة، وتعود إلى بلدها؟ أتساءل مستهجناً مغادرتها، على الرغم من المنطق الذي يحيط بهذا الأمر. فمدّة إقامتها محدودة في مصر. ما الذي سيحدث لي عندما تغادر هي مصر؟ هل سيكون شأنها كشأن النساء والفتيات اللواتي عرفتُهنّ وغادرن مصر إلى بلادهنّ؟ لم أستطع أن أحدّد لحظتها.

بين ضحكاتها المفعمة بالحيوية والسعادة، وتفكيري فيها، يشدّ ناظريّ وانتباهي أصوات الناس ووجوههم على جانبيّ الكوبري. السيارات على الكوبري لا تتوقّف، وأصوات محرّكاتها تُصدر ضجيجاً لا يتوقف، كأنها تُعلن أنكَ في القاهرة. هذه المدينة التي لا تعرف السكون. فهي مدينة حياة...

هي... والنيل... والقاهرة. أيّ مكان يجتمع فيه الجمال بأبعاده الثلاثية غير مصر؟!

اقتربنا من الطريق المؤدّي إلى الفندق الذي تقيم فيه. ذلك يعني أنها ستذهب. ابتسم حزيناً على فراق أُقحِمْتُ فيه.

قلتُ وأنا أمسك بيدها:

- سأراكِ غداً. يجب أن أراكِ قبل أن تغادري مصر.

قالت مطمئنة إيّاي:

- لا أستطيع أن أغادر مصر دون أن أراكَ.

أسعدني ردّها، على الرغم من الضّيق الذي غلّف أعماقي بسبب فراقها الآتي. هي لن تغادر مصر دون أن تراني. قد يهبني لقائي معها ما أشتهي منها. لاح الأمل في الحبّ. فكلّ لقاء معها يحمل في طيّاته أمل الاقتراب والتقبيل... وكلّ شيء.

قلت بسعادة:

- يا حياتي...

قاطعتني:

- إلى اللقاء غداً. وداعاً.

قلت تاركاً يدها:

- وداعاً.

هذه اللحظات مؤلمة، وكلمة طاعنة بالأوجاع والآهات. الوداع... الفراق... والابتعاد وكلّ هذه القائمة من المفردات والكلمات الموجعة. كلمات لا يشعر بعمق ألمها وأوجاعها سوى المحبّين.

استدارتْ. وقفتُ على جانب الشارع أراقبها وهي تمشي حتى ابتعدتْ عني، وتوارت عن ناظريّ. انتابتني رغبة في أن أتّصل بها، لكنّني لم أفعل خوفاً من أن أثير إزعاجها. كان ينبغي أن أنتظر الغد... أن أنتظر ما يخفي في ثناياه من سعادة في لقائها.

عدتُ أمشي على الكوبري وحيداً. أمشي وأفكّر فيها، وفي سحر هذا المكان الذي يجمعنا... كوبري قصر النّيل. أفكّر في حوارنا، وكلامها وجمالها، خطر في بالي ذلك الممّثل المصري، محمود عبد العزيز، وسرّ إعجابها به وهو في هذه السنّ.

* * *

في وقت لاحق من تلك الليلة، عدتُ إلى البيت في أمبابة. أتوقّع توبيخات أمّي التي تعودتُ عليها. هذه المرة ليست كسابقاتها. سأتجاهلها. سأتجاهل توبيخات أمّي. لن تستطيع توبيخاتها هذه المرّة أن تغزو سعادتي المحصّنة. سعادة محصّنة بالمتعة. عندما تبلغ السعادة أوجها، فلا تطالها أمور أخرى. لا يطالها الحزن. انتابني ذلك الشعور لحظتها. لم أتصوّر أن شيئاً يمكنه أن ينسف جبال متعتي. تلك الجبال التي أجتاحُ قممها ابتهاجاً.

ولجتُ المنزل غارقاً في صمت عميق، كي لا أفتح نوافذ الحديث. الساعة الثانية بعد منتصف الليل. أمي هناك... على تلك الأريكة،

تنتظرني. يبدو أن والدي غارق في النوم، أما هي فتنتظرني توبيخاتها، ويستقبلني استياؤها. ماذا أقول لها وقد قرّرتُ أن لا أُفسد متعتي بالكلام مع أحد؟ فالكلام يُفْسدُ المتعة أحياناً. يفسدها عندما يتعرّض الجسد لغزو المشاعر. تلك هي الحالة التي كنتُ فيها. فماذا أقول لأمّي وقد أخرستْني المشاعر؟

بهدوء مجاور للانسحاب، ألقيتُ التحيّة، متوجّهاً نحو حجرتي.

سمعتها تقول بغضب قبل أن أفتح باب حجرتي:

- كنت فين؟

"كنت فين؟" هذا السؤال المتكرّر اللاّمتناهي. كيف أجيب على سؤالها هذا؟ كان الجواب دائماً جاهزاً على لساني، "مع صحابي". لكن، لماذا يتعثّر الصّمتُ الآن بحروف الجواب؟ لماذا أهوى الصّدق هذه المرّة؟ لماذا أشعر برغبة في أن أخبر أمّي، وأخبر القاهرة ومصر كلّها مع مَنْ كنتُ أنا هذه الليلة، التي يلُفّها نسيج من المشاعر الغراميّة المتصاعدة؟ ألآن الحبّ العميق يرتبط بالصّدق؟ ألآن الأمر هذه المرة يختلف عن ما سبقه من مغامرات خضعتْ لمنطق اللّحظات العابرة؟ أنثى مغلّفة باللحظات العابرة. لكنّ... لكنّ الأمر ليس كذلك هذه المرّة. أأُخبر أمّي؟ أم أُخبر القاهرة أولاً؟ أم أنتظر الغد؟ أم أنتظر الزّمن البعيد؟

سأنتظر، هكذا قررْتُ في أول الأمر. سأُخفي... سأكذب. هكذا قرّرْت لاحقاً. القرارات في رأسي متتالية وسريعة. إن لم أُخفِ، ستغضب أمّي في وقت أرغب فيه في الهدوء والسعادة ومتعة التخيّل.

قلت بعد صمت طويل كلمتين قد أَلِفَتْهما أُذنا أمّي.

- مع صحابي.

ردتْ باستياء وتعجّب:

- صحابك؟!

أجبتُ بإصرار وتأكيد:

- مع صحابي.

رمقتني بنظرات الشكّ. هي لا تصدّقني، وأنا لم أشعر برغبة في التوضيح والتبرير والتفسير. في تلك اللحظة كان عليها أن تتلقّى جوابي، ولها أنْ تخوض في تفاصيله وحدها. في تلك اللحظة بالتحديد، لم يكن مهمّاً بالنسبة لي أن تصدّقني أو لا تصدقني.

أردفتُ أقول كي أضع حدّاً للنقاش:

- أنا تعبان.

لم أنتظر ردّها على كلامي بالتّعب من الكلام والنقاش. ولجت حجرتي، وأغلقت الباب وأنا أسمع كلامها وتهديدها بأنها ستخبر والدي. لا شيء يهمّ، قلت في داخلي.

ابتسمتُ... ثم ارتميتُ على سريري، ناظراً إلى السقف، أتخيّل حبيبتي. أتخيّل سحابة الغد وما تحمله من أمطار المشاعر والحبّ. لا أفكّر في أمّي وتذمّرها، ولا أفكّر في والدي وما سيصدر عنه عندما تُخبره أمّي عن تصرّفاتي التي تثير استياءها. لا أفكّر في شيء، كأنّ الدنيا غائبة عنّي... عن عالمي. الآن... الآن يتعثّر قلبي بفتاة سوريّة تنسيني كلّ الذي مضى. علاقات مضتْ، ونساء قد ذهبْنَ، والعالم جميل... جميل في أعماقي... في نظراتي. فقد جاءتْ مَنْ استطاعت أن تمحو كلّ ما كان من علاقات آنيّة. أيمكن هي أن تبقى؟ أأحبّ فتاة تقيم في مصر لمدة أيام؟ كيف ذلك؟ لماذا أفسد سعادتي الآن بالتفكير في لحظات المغادرة؟ هي الآن في مصر، فلماذا أفكّر في وقت الرحيل؟ لماذا يحلّق في سماء سعادتنا ما يُحزِنُنا؟!

سألقاها غداً... سأطلب منها أن تعود إلى مصر بعد مغادرتها. فأنا لا أريد لكلّ ما أنا فيه أن ينتهي. لا أدري ماذا سيكون جوابها. هل تمكّنْتُ من اجتياح قلبها حبّاً بحيث تعيدها الأشواقُ إلى أرض مصر؟

سأحاول... سأحاول أن أقنعها أن تعود، فأنا أحتاج إليها. ولكن ما يعتلج في صدري ويُشْغل تفكيري هو أن تكون حاجتها إليّ كحاجتي إليها.

الفصل الثالث

مرّت ساعات اللّيل إلى أن سحبتْني أمواج النوم إلى منتصف النّهار. أمّي، كعادتها، تتذمّر من نومي حتى وقت متأخر من النّهار، ولا تتوقّف عن مطالبتي بالبحث عن عمل بدلاً من قضاء ساعات النّهار في النّوم. أجيبها بين الحين والآخر أنّني لا أتوقّف عن البحث عن عمل. لكنها لا تصدّقني. هي لا تصدّقني، وأما أنا فلا أدري ماذا أفعل. تغضب وتقول لي إنني لا أبحث عن عمل كما ينبغي، بل أبحث عن فتيات. لا أُنكر أنّني أبحث عن الأمريْن معاً بعض الأحيان. العمل... والفتيات. فما التعامل مع الفتيات والنساء إلاّ نوع من أنواع العمل.

في حجرتي المغلّفة بحبّ جديد... وفي سريري المضمّخ برائحة الشّام، أمسكتُ بهاتفي المحمول، ورحتُ أنظر إلى المكالمات الفائتة. مكالمات من بعض الأصدقاء... لا يهمّني أن أطلب أرقامهم. مكالمتان فائتتان فقط لفتتا انتباهي. هي مكالمة من سامي. ذلك الطالب الغارق في تعقيدات الفلسفة وهوس علم النّفس. مع أنّني لا أحبّ الفلسفة، لكنني أحبّ رفقة هذا الشاب، وأشعر برغبة في الحديث معه. وأمّا المكالمة الأكثر أهمّية من مكالمة سامي، فهي مكالمة جمانة التي ارتعش لها قلبي. انتشرت ابتسامة عريضة على وجهي، كما ينتشر عبير الأزهار في الهواء. اتصالها يدلّ على أنها تفكّر فيّ وهذا يسعدني. فما أجمل أنْ تحظى بتفكير مَنْ تحبّ. خرجت من حجرتي. أمي تقوم ببعض الأعمال المنزلية. أنظر

إلى شاشة الهاتف المحمول. مكالمة جمانة الفائتة تثير رغبتي في الاتصال بها.

توجّهتُ نحو حجرتي مسرعاً، كي أطلب رقمها. فلا أريد أمّي أن تسمع مكالمتي معها. لا شيء يثير غضب أمّي كالمكالمات مع الفتيات وعلاقاتي بهنّ. فأصبحت أخفي عنها علاقاتي هذه التي شعرتُ أنها ضرورة في حياتي، على الرغم من شوائب هذه العلاقات. سأطلبها على الهاتف كي أؤكّد على موعدي معها. اتصلتُ بها، فجاء ردّها كما كنت أتمنى وأشتهي. ستلتقي بي... على كوبري قصر النّيل... في ذلك الوقت... بعد الثامنة، أيّ عندما يغلّف الظلام مدينة القاهرة. فيكفي نورها الذي يندمج مع أضواء القاهرة. القاهرة مدينة الأضواء... مدينة الحياة والحركة.

أسعدني ردّها على اتصالي كما أسعدني اتصال جسدي بجسدها في أحلامي، كأنّ السماء تُمطِر قطرات السعادة على جسد لا يرتوي. بعد ذلك طلبتُ رقم سامي فلم يرد على اتصالي، فعرفتُ أنه في الجامعة... وربما في إحدى المحاضرات. هو عادة لا يرد على اتصالي عندما يكون في المحاضرة.

في وقت لاحق من ذلك النهار، تناولت طعامي، ثم نظفت أسناني، وارتديت ملابسي. على غير العادة، لم تتوجّه إليّ صعقات أسئلة أمّي. لم تسألني عن المكان الذي كنت أقصده. فراقني ذلك. رائع أن لا يسألك أحد عندما لا ترغب في الإجابة. لم تسألني أمّي، وأنا سعدْتُ

لـذلك. يبـدو أنهـا تتوقّـع إجـابتي، التي لـم تقنعهـا يومـاً. لكنهـا، أحيانـاً، لا تملـك سـوى الاستسـلام أمـام إصـراري. لا يمكنني أن أفـوّت على نفسـي متعـة يتـوق إليها جسـدي. أتجاهـل نظـرات الاسـتياء في عينيّ أمّي، وأفكّـر فيما سألقى من سعادة ينجبها ذلك اللقاء المنتظر، المعطّر برائحة الشام.

هـا هي الشـمس تـودّع ذلـك الجـزء مـن الكـرة الأرضيـة... مدينـة القـاهرة. ويقترب ظلام ينطلق منـه دفء عجيـب... وتقترب أحلام سـامقة بسـحرها وجمالهـا. الله... الله... مـا أجملكِ يـا قـاهرة المعزّ! الشـمس تغيـب، وأنـا أسـعد لـذلك. في هـذا الوقـت بالـذات يـرتبط المغيـب بالسـعادة... السـعادة في حضـورها هي. السـعادة في أن تكـون هنـا... في قلـب القـاهرة النابض بالحياة والدفء.

غـادرتُ المنزل والسـعادة بلقائها تسـري في جسـدي. أفكّـر في ذلـك المكـان بإثـارة التفكير فيهـا. بعـض الأحيـان تنجـب الأمـاكن إثـارة قويـة إذا كانــت تــرتبط بِمَــن نُحــبّ. كــوبري قصــر النيــل هــذا يجمــع المتنـزهين والسـائحين والسـامرين، ويجمع العشـاق أيضاً.

* * *

بوسـاطة سيارة أجرة، وصلت الكوبري. أقترب من الكوبري بلهفة آخــذة بالتصــاعد، وبســرعة مَــنْ يلاحــق الــزّمن. ألاحــق هــذه الســاعات المتبقية من إقامتها في مصر.

أأطلبها أمْ أنتظر حتى تطلبني هي؟ تساءلتُ بلهفة مَنْ يتحايل على دقائق الانتظار. طلبتُ رقمها، فردّت عليّ بسرعة كأنها كانت تُمسك بهاتفها المحمول وتحاول أن تطلبني. أخبرتني أنها في طريقها إلى الكوبري. ثلاث دقائق تقريباً، وتكون معي. ذراعي حول خصرها.

التفتُّ نحو ذلك الاتجاه المؤديّ إلى الفندق الذي تقيم فيه. أمعن النظر في القادمين في ذلك الاتجاه في عتمة الليل، التي تغلّف ذلك الجزء من القاهرة. في أجزاء أخرى حولي تتلألأ أضواء الشوارع والمراكب في النّيل، ناسفة ظلاماً لا تعرفه هذه المدينة. ثوانٍ... ثم دقائق.

ها هي تتقدّم بطلعتها البهيّة. تتمايل في مِشْيَتها كما الأغصان التي تتمايل على عَزْف النّسيم. الأنثى المشتهاة... العَزْف المثير... الجمال الخلاّب.

أبتسم استجابة لطلّتها الرائعة. أبتسم في ذلك المكان المغلّف بالعتمة. ابتسم قبل أن تصلني، كأنني أتوقّع أن تخترق ابتساماتي عتمة المكان، وتستقرّ في عينيها الجميلتين. هل أنا أبتسم في وجهها الذي تفصلني عنه بضعة مترات ملفوفة بالعتمة؟ أم أبتسم للدنيا سعادة؟ أم للشوارع؟ أم للناس؟ أم للقاهرة؟ هذه المدينة التي لا تستطيع إلاّ أن تبتسم عندما يحتضنكَ دفئها؟

تتمايل هي... وأموج أنا سعادة، كأنّ لحن متعة اللقاء يراقصنا. تتقدّم هي نحوي، وأتقدّم نحوها، وقلبي ينشد العناق. عناقها. أبتسم... أتقدّم... افتح ذراعيّ بشكل كبير كأنني سأحتوي الوجود... سأحتضن العالم...هكذا شعرت لحظتها. العالم كله بدا كطفل صغير بين ذراعيّ، وأنا أستطيع أن أحتويه بذلك الخيال... وبتلك المشاعر.

أعانقها الآن. أعانقها أمام كلّ هؤلاء الناس على الكوبري... أمام الأعين والنظرات التي تهوى التلصّص... غير آبهٍ بما يصلنا من تعليقات. أعانقها الآن ورائحة شعرها الجميلة تخترق أنفي. كيف أفوّت على نفسي عناق حديقة أزهار، ينتشر في أجوائها وأعماقها العبير؟ ذلك العناق ولو لم يكن طويلاً، فإنه أسعدني. كنتُ أتمنّى عناقاً عميقاً... دافئاً... ممتدّاً كما الجذور كي أشتعل أنا وتذوب هي... كي ننصهر معاً. ولكن كيف ذلك ونحن في الشارع؟ وأيّ شارع؟! شارع في القاهرة. شارع لا يصل إليه الهدوء.

قالت مبتسمة بعدما تملّصت من عناقي:

- أنت مجنون... تعانقني... في الشارع كأن القاهرة لا أحد فيها.

ضحكتُ بصوت عالٍ، ثم قلت:

- لا أحد فيها غيرنا...

قلت ذلك، وهكذا خُيّل إليّ. خالَ لي أن لا أحد في ذلك المكان غيرنا. وكيف أعي وجود هؤلاء الناس وأنا أتفرّد بنشوة تسبي العقل وتصهر الجسد؟ ما أروع ما كنت فيه! كأنّ كل هؤلاء الناس على الكوبري، وفي الشوارع القريبة ابتلعتهم متعة اللقاء.

ردّت متسائلة وضحكة جميلة تفترش وجهها الجميل، كأنّها أرادت أن أكرر ما قلت:

- لا أحد غيرنا؟! في القاهرة؟!

قلت ضاحكاً:

- أنا لا أرى أحداً... أترين أنتِ؟

ضحكتْ. أمسكتُ بيدها ورحنا نمشي على الكوبري الصاخب بالأصوات والحركة. ها أنا أتجوّل معها في شوارع القاهرة. ولكن هذا لا يكفيني... أو لم يعد يكفيني. كان يكفيني أن أمشي معها في لقائنا الأول. لكن الأمور تأخذ اتجاهاً آخر عندما تنضج علاقة ما بدفء الدقائق والزّمن. لم يعد يكفيني أن أرافقها دون أن أنال منها شيئاً؟! أيكتفي جائع بالنظر إلى الطعام كي يشبع؟ أريدها... أرغبها حدّ درجة الإشباع.

ولكن كيف سأختلي بها؟ متى؟ وأين؟ أأطلب منها أن تذهب معي إلى مكان ما... ربّما منزل أحد أصدقائي. هل ستوافق هي على أمر كهذا؟

لا أدري. رحتُ أتسلّق أحلاماً شاهقة حُبّاً ورغبة. حُلمٌ في شفتيْها... حلم في نهديْها... حلم في الذّروة... ما أروع أحلام الحبّ المرتفعة بمتعتها! أرى الأحلام بعدسات الخيال.

رأيتُ أن أنتظر. لم أجرؤ أن أقول لها إنني أرغب في كلّ شيء، على الرغم من جرأتي التي يحسدني عليها أصدقائي، خاصة مع الفتيات. هذه المرّة لا أجرؤ على أن أطرق باب الرّغبة. وجدتُ نفسي أرتدي الانتظار بأناقة مَنْ يهوى الترتيب. فالوقت لم يحِن بعد. الأمر يحتاج إلى ترتيبات الوقت والمكان.

نمشي معاً، والسعادة تغمرنا، والنيّل تتلألأ مياهه بسبب انعكاس أضواء المراكب، وأضواء الشوارع على مرآة الماء. يرقص قلبي سعادة، وتتلألأ مياه النيّل كأنّ هذا النهر الخالد يشاركني فرحتي.

رحتُ أحدّثها عن نفسي، فقلتُ لها إنّنا في البيت ستة أشخاص. ثلاثة بنات وثلاث أولاد. وأخبرتها أنّني أرغب في العودة للجامعة كي أكمل دراستي، وذلك بعدما أحصل على عمل يمكنّني أن أتحمّل نفقات الدراسة. هي شجّعتني على فكرة متابعة الدراسة. أخبرتها أن أخواتي

متزوّجات، وأنني أجد في زوج أختي الوسطى أقرب صديق إليّ. فعادة ما أحبّ الحديث معه عن أشياء كثيرة، مثل علاقاتي مع الفتيات، ورغبتي في الحصول على عمل، ومشاكلي مع أفراد عائلتي. لا أشعر أنّ أحداً في عائلتي يفهمني كما يفهمني هو. سألتني عن عمره، فأخبرتها أنّه في التاسعة والعشرين، واسمه هاني.

بعد دقائق، أخذ حديثي معها يأخذ اتجاهاً آخر. فقلتُ لها إن جاذبيّتها تشدّني نحوها، وإنّ ما نحن فيه لا يكفيني، كي أضع قاعدة يستند عليها طلبي بأن ترافقني إلى مكان يجمعني معها. أفحص مشاعرها بطريقة غير مباشرة، وأقرأ على صفحة وجهها إلى أيّ مدى قد تصل هي معي في هذه الثورة العاطفية التي اندلعت فجأة على أرض القاهرة. ضحكت هي، ولم تقل شيئاً، فشعرتُ أنني في الطريق إلى الموافقة. أيمكن أن تهبني الحياة كلّ هذا الجمال دفعة واحدة؟! تساءلتُ في أعماقي متعجّباً. لكن... عدم ردّها على كلامي قد يحمل معاني أخرى، فكّرت في وقت لاحق. ولماذا أفكّر في المعاني الأخرى في هذه اللحظة؟ هي ضحكتْ، ولو لم يَرُقْها كلامي لأجابت بالنّفي، أو لتركتْني وغادرت المكان. لا أرغب في أن أجبرها على شيء. فمتعة الحبّ لا يُطْلِقُها الإكراه. متعة الحبّ يُنْجبها التفاعل... الاندماج... الاستجابة المتبادلة. الحبّ والشهوة شيئان مختلفان إلى حدّ كبير. في الحبّ أنت تتفاعل مع الروح والجسد معاً في ازدواجيّة عجيبة. فأنت تتفاعل مع حياة. أمّا في الشهوة وحدها فأنت

تتعامل مع جسد... يثير... يصعق... يهدئ. تتفاعل أنتَ مع أداة. أين هي الحياة في أداة؟

أسعدْتني ضحكتها التي أشعرتني بالموافقة... الموافقة على الحبّ، وليس الشهوة. يجب أن أضع بصمة الحبّ على صفحة جسدها... أن أعزف لحن النّيل الخالد على أوتار روحها.

قالت بعد صمت طويل:

- أنتَ رائع..

قلت وذراعي تخاصرها:

- وأنتِ أروع.

قالت فجأة، كأنها أرادت أن تخبرني بأنّ تفكيري قد أخذ اتجاهاً بعيداً لا يحتويه الوقت:

- سأغادر مصر غداً صباحاً.

أخطّط أنا... وأرسم لوحة الغد بريشة الأمل وبألوان الحبّ، على نهاية صفحة الوقت. كأنه مَوْلد أحلامي في وقت الاحتضار. احتضار الدقائق والساعات. ستغادر هي... ستفارقني... وتبتعد عن أرض مصر كلّها.

وكلّ هذا سيحدث غداً دفعة واحدة. أيّ ثِقَل هذا الذي سيضعه القدَر على كتفيّ؟! أيّ أيام مُعَفَّرة السعادة هذه؟! أيّ أيام مُغْبَرّة البهجة تلك؟!

قبلها، عرفت نساء وفتيات، وقد غادرن مصر وذهبنَ إلى بلادهنّ، والآن لا أعلم عنهنّ شيئاً سوى ما يصلني منهنّ أحياناً، من رسائل أقرأها بفتور على شاشة هاتفي المحمول. ولكن... هل جمانة مثلهنّ؟ هل سَيَمْحو بُعْد المسافة بين بلدي وبلدها ملامحها وذكراها؟ لماذا أشعر أنّ الأمر مختلف معها؟ ألانني لم أحصل على شيء منها؟

"ستغادر غداً صباحاً،" ردّدتُ في داخلي. هي ساعات قصيرة تتعثّر في دقائقها وثوانيها الرغبات والأحلام... رؤوس رغبات... وأواخر أحلام. فماذا أفعل؟

شعرتُ بالحزن، ليس لأنني لم أحصل على شيء منها خلال هذه اللقاءات معها، بل لأنها ستغادر مصر. يا الله... ألا تَتّسع لها مصر؟! أنا سعيد بوجودها معي... في مصر، في أحضان القاهرة.

قُلْت بعد صمت، وذراعي لا تزال تخاصرها وروحي تُطَوّق روحها:

- ستغادرين؟! بهذه السرعة؟!

أجابت بطريقة حالمة:

- مَنْ يدخل مصر لا يقوى على مغادرتها. في مصر سحر يشدّ الزائر. ولكن الأمور بالنسبة لي خارجة عن سيطرتي. يجب أن أعود إلى بلدي. فهناك عملي.

كلامها أقنع عقلي، لكنه لم يقنع قلبي. فالعقول لا يخترقها منطق القلوب.

قلت وقلبي ينبض بالأمل:

- أتمنّى أن تعودي يوماً إلى مصر. وأتمنّى أن تكون عودتكِ قريبة. فلا يمكن لمنطق العقول أن يخترق منطق القلوب.

ردّتْ بطريقة مفاجئة، لكنّها تبثّ في النّفس السرور.

- منطق أنْ لا أراكَ...

والحكمة أنْ لا أعشقكَ...

ولكنْ...

الّلامنطق والّلامعقول،

أنْ لا أراكَ...

وأنْ لا أعشقكَ.

قلت مسروراً:

- ما أروعكِ! أأنتِ شاعرة أم صيدلانية؟

ابتسمت ابتسامة جميلة. أردفتُ أقول بإصرار:

- يجب أن تعودي إلى مصر.

أجابت:

- سأعود.

لاذتْ بالصمت ثوانٍ، ثم أردفتْ تقول والابتسامة لا تفارق وجهها:

- قد أعود إلى مصر.

كلمة "قد" هذه طعنتْ فرحتي. يا إلهي... كنت سعيداً بكلمة "سأعود"، على الرغم من الفتور الذي غلّف هذه الكلمة حين قالتها. لماذا تطعَن هي سعادتي وفرحتي بكلمة "قد"؟ لماذا لم تلتزم بالتأكيد الذي تحمله كلمة "سأعود"؟ ولماذا تصعقني بالاحتمال الذي تحمله كلمة "قد".

حملتُ "راية التأكيد" أنا، ناسفاً قاعدة الاحتمالات، وقلت مبتسماً ولكن بنبرة قويّة، كأنّني آمرها... قلبي يأمرها، وأملي أن تبدي هي الطاعة:

- بل ستعودين إلى مصر...

أجابت بنبرة قويّة، كأنّ حاجتها للعودة أقوى من حاجتي:

- سأعود...

أسعدني ردّها، ولا أدري إن كان طلبي المتكرّر بعودتها هو سبب ذلك الردّ الذي أثار سعادتي، أمْ إنْ كان في مصر ما يقودها إلى العودة. هي قالت: "إنّ مَنْ يدخل مصر لا يقوى على مغادرتها." أهي مصر التي تشدّها أم أنا؟

"لا يهمّ،" قلت في أعماقي. لا يهمّ إن كانت مصر هي التي تقود عشّاقها إلى أرضها ونيلها وهوائها. فمصر حاضنة الجمال.

الآن عرفتُ أنها ستعود، ولكن... متى؟ أخشى أن يطول غيابها. شعرت بلهفة على السؤال كي استوضح الأمر.

سألتها:

- متى ستعودين...

قالت بسرعة كأنّها قد خطّطت للعودة:

- سأعود بعد بضعة أشهر...

سرّني كلامها، على الرغم من أنّني كنت أشعر لحظتها أن غيابها ولو لبضع ساعات يفوق قدرتي على الاحتمال. لكن... بضعة أشهر أفضل

من سنة أو بضع سنوات. جاء ردّها موحياً بفتح باب علاقة أردتها أن تتطور وتستمرّ.

قلت لها وبنبرة امتنان:

- أنت رائعة، وتسعدني عودتك إلى مصر.

قادتنا أقدامنا إلى نهاية الكوبري، باتجاه برج القاهرة. في هذا الشارع المؤدي إلى برج القاهرة، تتكاثر الأشجار، ويقلّ عدد الناس. هدوء المكان يُصَعّد الرغبة. أرغب أن أخلو بها كي أحتسي من شفتيْها نبيذ الشام... كي أطبع على شفتيْها المثيرتيْن قبلة الوجود... قبلة الخلود، على أرض الخلود... مصر.

نحن... وليل القاهرة... وبرج القاهرة الشامخ، والمتلألئ بالأضواء، تحوطه الخضرة والأشجار السامقة. يا لسحر المكان! يا لسحر المشاعر!

هي ستسافر غداً صباحاً. لا معنى للانتظار... لا منطق في التريّث الآن. لا أحتمل. هي ستطير كطائر... ستبتعد، والرغبة في داخلي تزلزلني.

أمشي معها، وأنظر حولي لعلّي أجد ركناً، لا تصلنا فيه نظرات الآخرين. اقتربنا من مجموعة من الأشجار الكثيفة، والناس على مَبْعدةٍ منّا. أوراق الأشجار تراقصها أنسام الصيف. هسيس النباتات القريبة، على مَقْرُبة من ضفاف النّيل وهمساته العذبة. أيمكن للقاهرة أن تهبنا

مكاناً هادئاً كهذا؟ أيمكن هذا وهي مدينة الملايين... مدينة السّهر والسّمر؟

هدوء المكان يُطلق دفء الرّغبة. ها نحن نلتحف العتمة في مدينة الأضواء والأنوار. أقترب منها، وهي كذلك تفعل. ذراعاي حولها، تخاصرانها تارة، تُعانقانها تارة أخرى. أنفاسها الحرّى تجتاح وجهي. أهمس بصوت خفيض: "أنت جميلة". وما أنْ شعرتُ بذراعيها تطوقانني حتى ذابت الحروف والكلمات في فمي. سكنتْ كلماتي، وانطلقتْ ضربات قلبي دفعة واحدة. شفتاي على مشارف الاشتعال... والذوبان. تفصل الآن شفتيّ عن شفتيْها تلك المسافة بين نقطتي حرف التاء. ها هي تلفّني... تدثّرني... تحاصرني حصاراً أسطورياً بذراعيْها. ما أروعكِ أيتها القاهرة! وما أجمل ضيوفكِ!

غَدَوْتُ كالمدينة المحاصرة بين ذراعيْها، لا أستطيع الابتعاد والحركة. أنتظر الاحتراق بنار شفتيْها. هي الآن بين ذراعيّ، وشفتاي تتندّى بنبيذ شفتيْها. ما ألذّه! وأما الخمور بأنواعها ففي ريقها. ريقي يختلط في ريقها الآن. نحتسي المتعة... نشرب اللذّة فيزداد عطش جسدينا. ما أشهى تلك القُبُلات! قُبُلات بمذاق شاميّ، ودفء مصريّ. هي تئنّ بين ذراعيّ... أنين الرغبة في المزيد. يلتصق صدري بصدرها في عناق لم أجرّب حرائقه في حياتي. وأمّا مذاق شفتيْها فيدخل في قائمة الخرافات، والأساطير، والحكايا. قبّلت وعانقتُ نساء وفتيات قبلها، لكنّني الآن أتعلّم دروساً

جديـدة في العنـاق والتقبيـل. أتعلّـم الآن أنّ مـع كـل امـرأة تقترِبُ منهـا اقترابَ العاشـق، فأنـت تـتعلّم منهجاً جديـداً في الحيـاة. فالنسـاء منـاهج حياة... مدارس عشق... امتحانات عاطفيّة.

لا أزال أقبّـل شـفتيها دون أن أكتفـي. فكيـف تكتفـي روحـي العطشـى؟ وكيـف يتوقـف جسـد يلاحـق الـزّمن؟ يتعـالى صـوت أنّاتهـا وغُنْجِها في أجواء القاهرة، كأنها طير يرنّم.

أنا...

وهي... وألحفة العتمة.

وأما القـاهرة... القـاهرة كأنهـا نامـت. مدينـة اليقظـة نامـتِ الآن، وغطّتْ أجسادنا بعتمة أخّاذة. ها هي العتمة ترتبط الآن بالجمال، وليس بالحزن والكآبة.

هبطتْ شفتاي نحو عنقها، ويداي تداعبان نهديْها... رائعة كانت هي بكلّ معاني الإثارة.

ابتعدتْ قليلاً، ثم قالت:

- هذا يكفي.

ألهـث الأنفـاس الآن، لا أسـتطيع أن أتوقّـف. لكـن الأمـور لا تحتمل المتابعة. في مكان كهذا، وفي مدينة النشاط والحيوية والحركة لا يمكنكَ أن تحظى بأكثر من قُبْلة على عجل. لكنّني، لحسن حظّي، فُزْتُ

بقبلة طويلة كما الدهر بلذّتها... حارقة كما النار بإثارتها... عميقة كما الجذور بامتدادها وأثرها. الآن، دقائق المتعة تختزل الدّهر بكلّ مقاييس الوقت التي يحتويها.

وضعت راحة يدي على خدّها، ثم أمسكت بيدها، واتجهنا نحو ضجيج المدينة. اقتربنا من مبنى الأوبرا.

قالت والسعادة تجتاح وجهها:

- لا يمكنني أن أتأخرّ أكثر من ذلك. غداً صباحاً سأغادر مصر، وهناك العديد من الترتيبات التي يجب أن أقوم بها.

لسعتْني كلمة "سأغادر" أَلَمَاً، فعدتُ أتحدّث عن عودتها.

قلت:

- ولكنك ستعودين... أليس كذلك؟

أجابت بنبرة حالمة:

- لمصر عشق يسري في الجسد، ويتغلغل في أعماق الروح...

قاطعتها مُعْجباً بكلامها الرقيق:

- ما كلّ هذه الرّقة؟ ما كلّ هذا الجمال؟ هل ستعودين من أجلي أم من أجل مصر؟

أجابت ضاحكة:

- من أجلكما... أتَغار من مصر؟ لا يمكنني أن أتصوّر ذلك... فأنت أحد أبنائها.

أعجبني ردّها، ثم أسعدني. ففي عودتها إلى مصر عودة لي. فمِصر في أعماقي حبّاً، وأنا انطلقتُ من أعماق رحمها. كلانا في أعماق الآخر.

قلتُ سعيداً بكلامها:

- أنتِ رائعة.

اشتدتْ قبضة يدي على يدها، كأنّني أخشى أن تبتعد عني. هي ستغادر غداً، فما أسوأ الغد! وما أجمل الليلة! وما أجمل القاهرة التي تجمعنا!

عندما تكون في لحظات جميلة، وأنتَ تدرك أن هذه اللحظات قد لا تتكرّر، فإنه ينتابك شعور قويّ بأن تغرف كلّ ما في وعاء السعادة. تجد نفسك ملزماً بهزيمة الوقت بحكمة مَنْ يعي أنّ الغد ليس مُلْكاً لأحد. تجد نفسك مدفوعاً بقوى لا سيطرة لك عليها أحياناً، كي تستولي على كلّ ما في وعاء الحاضر من محتويات. هو الحاضر... هي هذه اللّحظات التي أملكها الآن. ولكنْ... كيف أخوض معارك الحبّ في الشوارع؟

الآن... الآن أجد نفسي مرغماً على وضع حزمة رغباتي واشتهاءاتي في سلّة الغد... سلة المجهول، غائب الملامح. ولكن... هل يمكنني أن أعثر على شيء وُضِعَ في المجهول غائب الملامح؟ كيف لي أن أتعرّف عليه إذا غلّفه المجهول؟!

أضع ما أضع في مجهول الغد على مضض، وأقرأ ما تخطّه أقلام المستقبل بعين نصف مفتوحة. هي قالت: "هذا يكفي" ولكن جسديْنا لم يصلا إلى مرحلة الاكتفاء. ما أوقفني هو احترام رغبتها بالتوقّف، وليس الاكتفاء.

خشيتُ من مجهول المستقبل أن يبتلعها، لذلك قلتُ:

- أريد عنوانك في حلب... أقصد رقم هاتف كي أتصل بك بعد عودتك، أو "ايميل".

ابتسمتْ، ثم ذكرتْ رقم هاتفها المحمول في سوريا، والبريد الالكتروني أيضاً. يبدو أنه أسعدها أن تستمرّ علاقتنا. سجّلت رقم هاتفها، والبريد الالكتروني في هاتفي المحمول، وقمتُ بحفظهما خوفاً من أن أفقدهما. انتابني شعور بالارتياح لاستمرار التواصل بيننا.

نمشي الآن بعد أن تجاوزنا مبنى الأوبرا، ورحنا نسير على جانب الكوبري. وقفتْ قليلاً، ونظرتْ إلى النّيل.

قالت وهي تتأمل مياه النّيل وبنبرة حزن الفراق:

- سأفتقد مصر... وسأتوق إلى نهر النّيل الخالد.

لم تذكُرني، كأنّني لستُ ضمن القائمة. لماذا لم تذكرني أنا؟ أيمكن أن أكون خارج دائرة حبّها بعد تلك القُبُلات المطبوعة في أعماقنا..؟

ابتسمتْ، ثم نظرتْ إليّ وأردفتْ تقول:

- وسأفتقدكَ أنتَ.

قالتْها... انطلقتْ من أعماقها... اسعدتْني بها. ذَكَرتْني هي. إذاً أنا ضمن القائمة... مصر والنّيل وأنا.

مشيْنا قليلاً، يدي بيدها.

قلتُ باللهجة المصرية:

- هتوحشيني...

ردتْ قائلة:

- ولكن أخشى أن تنساني في الوقت الذي أغادر فيه مصر، فلديك عدد كبير من الصديقات... وربما العشيقات.

ضحكتُ... ضحكتُ من الأعماق. انتابني شعور بالفخر بما لديّ من صديقات، وعشيقات. لكن وجود هذا العدد من الفتيات في حياتي لا يمحوها هي. فهي راسخة في الذاكرة كالإيمان... منقوشة على جدار القلب. هذا ما شعرتُ به آنذاك.

قلت بنبرة تأكيد:

- لن أنساكِ... فأنتِ لستِ مثلهنّ في شيء.

قالت كأنها تشكّ في كلامي:

- لا شيء تغفل عنه ذاكرة النسيان. هذه الطبيعة البشرية.

لم يقنعني كلامها، فقلت بحسم وصدق:

- لن أنساكِ، وسترَيْن بنفسكِ.

هزّتْ رأسها دلالة الايجاب. هل صدّقتْني؟ ليتها تصدّقني.

اقتربْنا من الفندق الذي تقيم فيه. أشعر أنّني على مشارف النهايات... النهايات الموجعة بعمق ألمها. كيف لكَ أيها الفراق أن تَنْسِف بصَمتٍ جبالاً من الأحلام؟ هي الآن معي... أمام ناظريّ... في أحشاء القاهرة... في أعماقي. غداً... غداً، لن تكون معي، ولا أمام عينيّ، ولا في أحشاء القاهرة، لكنّها حتماً ستكون في أعماقي. آه... آه... الفراق! الفراق إعصار قويّ يجرف سعادة الإنسان، وعاصفة هوجاء تهدم ما حوله، وما في أعماقه. كم مِنَ الوقت يحتاج الإنسان كي يعيد بناء ما دمّرته الأعاصير الشديدة، والعواصف الهوجاء؟

ماذا أقول لها وأنا ممتلئ بالكلام؟ ماذا أختار من مفردات اللغة؟ هل أقول لها إنني سأشتاق إليها؟ أم إنني لن أنساها؟

وكيف ستعالج هذه الكلمات أَلَم الفراق؟ فالعلاج بالبقاء على أرض مصر، وليس الابتعاد. الكلمات في هذه اللحظات لا جدوى منها.

الجُمَل والمفردات لا تهدّئ من أمواج المشاعر الثائرة بحزنها، والمتلاطمة على شواطئ الأعماق.

لم أقل لها إنّني سأشتاق إليها، أو إنني لن أنساها، بل قلت ذلك لنفسي. قلت ذلك لنفسي لأنّ شعور الاشتياق، والتذكّر يتعلقان بقلبي، وعقلي. إذا هما يعنيانني أنا فقط.

أخذتُ نفساً عميقاً، ثم قلتُ حزيناً:

- أتمنى لك عودة سالمة إلى بلدكِ.

لم أقل لها إني سأشتاق إليها، بل تمّنْيتُ لها عودة سالمة إلى بلدها. هكذا يقول الناس لشخص على وشك السّفر.

قالت وهي تمدّ يدها كي تصافحني، والحزن يغزو وجهها:

- سأشتاق إليكَ.

آه... غامتْ عيناي حزناً. لم أقلْها، وقالتها هي. تودّعني بالاشتياق والترحيب، بينما أودّعها بكلمات المغادرة والعودة السالمة إلى بلدها. في كلمتها معنى التشبّث والتمسّك، بينما في كلامي معاني التخلّي، وإنْ لم أكن أقصد هذا. أهي أبلغ مني في الحديث؟ لم أقل لها إنني سأشتاق إليها، اعتقاداً منّي أن الاشتياق يخصّ قلبي، ولن تجدي هذه الكلمة نفعاً في لحظة الفراق.

يدي بيدها، والحزن يغلّف نظراتنا. ابتعدتْ قليلاً، ثم توجهتْ نحو الفندق الذي تقيم فيه. لوّحت بيدها مودّعة، ثم أدارت ظهرها. كيف لسعادة زرعتها هذه الفتاة في قلبي أن تُجْتَثّ هكذا؟

غابت الآن عن النظر، ولكنّها حاضرة في أبهى حضور في القلب. أظلّت وجهي سُحُب حزن على فراقها. عدتُ أمشي على الكوبري بشعور ألم الفَقْد. فَقْدها هي. ما أسوأ أن تجوب الشوارع بشعور ألم الفَقْد! تائه أنت في أكثر الأماكن ارتياداً لها... غريب عن أقرب أصدقائك ومعارفك... ضائع في فراغ يجتاح أعماقكَ. أمشي وحيداً بين كل هؤلاء الناس. أمشي وحيداً في مدينة الملايين. أنظر إلى الأماكن التي كنّا نمشي فيها، وأتأمّلها طويلاً، وأتساءل في أعماقي: "هل تعود هي مرة أخرى؟ أيمكنني أن أراها مرّة أخرى؟" أتساءل، وأتساءل، ثم أرى في مجهول المستقبل أملاً في عودتها. هي قالت إنّها ستعود.

رنّ هاتفي المحمول. "لا بدّ أنّها أمّي"، قلت في داخلي. نظرتُ إلى الشاشة. هي أمّي. يُشغْلها أمر تأخرّي. لم أردّ، لأنني كنت على وشك العودة إلى البيت. هي نصف ساعة في سيارة أجرة، وسأكون في البيت، متوقعاً جولة جديدة من التوبيخات والاستياء.

الفصل الرابع

أشعّة الشمس تطلّ عليّ من تلك النافذة بجرأة كافر. تطلُّ عليّ شمس الكوْن، وتغيب عنّي شمس روحي فأيُّ حْلكة هذه؟! ها هو قلبي يستعر شوقاً قبل أن تغادر هي مصر، فكيف ستكون حالي بعدما تبتلعها المسافات البعيدة؟ مستعر القلب شوقاً... مظلم الأعماق حزناً. اليوم لن تُطلّ جمانة بإشراقها... لن أجوب الشوارع معها... لن تصلنا همسات النّيل... ولن أنْعم بدفء رفقتها. أقدَري أن أحبّ فتاة تَبْعُد عنّي مئات الكيلومترات؟ ما أشدّ بؤسي وحزني!

أسمع صوت أمّي وإخوتي في الحجرة المجاورة. لم يصلني من محتوى كلامهم شيء. أسمع أصواتهم دون أن أعي ماذا يقولون. أفكّر في وجود جمانة في مصر الذي أصبح ماضياً. أمس كان وجودها حاضراً. أفكّر... وأفكّر في عودتها التي أصبحت رهينة مجهول المستقبل.

نظرت إلى الساعة. تجاوزت السابعة بعشر دقائق تقريباً. طائرتها عند الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة. معنى ذلك أنها لم تتوجّه إلى المطار بَعْد. أيمكنني أن أراها قبل أن تغادر أرض مصر؟ أراها ولو لبضع دقائق.

لم أهاتفها، وفكّرت فجأة أن أذهب كي أراها قبل أن تغادر الفندق. قفزت من سريري، وغادرت حجرتي كي استحم. "يجب أن

أراها،" قلت في أعماقي. أشعة الشّمس تغلّف القاهرة بضوئها الذّهبيّ، وحبيبتي تغلّفني بسواد فراق اضطراريّ، وغياب متعدّد الاتّجاهات حزناً. يا له من تداخل عجيب في الألوان.

تناولتُ فطوراً خفيفاً، أعدّته أمّي، ثم غادرتُ المنزل، متوجّهاً إلى مصر الجديدة، حيث الفندق الذي تقيم فيه. أخبرت أمّي أنني لن أغيب طويلاً. هذه المرّة أيضاً لم تسألني عن المكان الذي أتوجّه إليه. يبدو أنها اعتقدتْ أنني ذاهب للبحث عن عمل. عملي هو الموضوع الذي يُشْغل بال أمّي بعد زواجي. إنْ كان إيجاد فرصة عمل هو ما دارَ في ذهنها، فلها ما اعتقدتْ، ولي ما أريد. فاعتقاداتكَ مُلْك لكَ، لا يحقّ لأحد أن يسلبها، أو يسحقها. "سرقة وسحق المعتقدات هو اعتداء على الملكية الفكرّية"، هذا ما قاله لي صديقي سامي ذات مرّة. "تُرى ماذا يفعل سامي الآن؟" تساءلت في داخلي. أُعْجَبُ ببعض كلامه أحياناً.

توجّهتُ إلى مصر الجديدة، في سيّارة أجرة. ما أقسى هذه اللحظات! لحظات الوداع دون الشّعور بيقين العودة. عرفت نساء وفتيات غيرها، ولم أفكّر أن أذهب إليهنّ كي أودّعهنّ في لحظات إقامتهنّ الأخيرة في مصر. لكن... لا أدري لماذا أطير الآن، مدفوعاً بجناحيّ اللهفة. أطير إليها كي أودّعها قبل أن تطير هي.

أنظر من نافذة السيارة، وأقول في أعماقي: "مصر جميلة... دافئة حبّاً. مصر حضن كبير لكلّ ضيوفها، فلماذا تغادر حبيبتي حضن مصر الدافئ؟"

مرّت الدقائق، وذهني شارد بكلمات أكرهها، وأمقتها، وهي "وداع مَنْ نُحبّ."

اقتربتُ من الفندق بقلب خائف حزناً. الساعة الآن الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة. الوقت يركض، وأنا أطارد دقائقه بقوّة اللّهفة والتشبّث. أقف الآن أمام الفندق... أتأمّل شرفاته... وانظر إلى جدرانه. هذا البناء الذي يحتويها... يحتوي حبيبتي، هذا البناء... هذه الجدران... وهذه الشرفات ارتبطتْ بأشواق حبيبتي. هاتفتها كي أخبرها أنني أنتظرها أمام الفندق. سَرَّها هي أنا أكون في انتظارها أمام الفندق. أخبرتْني على الهاتف أنها قد أنهتْ ترتيبات السّفر. بعد دقائق، ظهرت وهي تحمل حقيبة يد، وحقيبة سفر. نظرتُ إليها ورحتُ أتمتم:

- مصر تُرحّب...

مصر تحتضن عُشّاقها... ولا تودّع،

فلماذا تذهبين؟!

اقتربتُ منها بابتسامة يدثّرها حزن الفراق. هي اللحظات الموجعة بِصَمْتِها. ابتسمتْ هي في وجهي، وبذلك الحزن الذي يجتاحني في تلك اللحظة. ماذا أقول والكلام قد تشابكَ في رأسي؟ كيف أفكّ ضفائر الكلمات المربوطة بالصّمت. أأقول لها إنني أحتاج إليها؟ أَمْ سأشتاق إليها؟ أَمْ لا تذهبي؟ أم سأمنعك من السفر؟ ليتني أملك سلطة عليها كي أمنعها من السّفر. ليتني أصدر أمراً يمنعها من السّفر، كذلك الأمر الذي يصدر عادة لمنع المذنبين والمجرمين من مغادرة البلاد. أو أصدر مذكّرة اعتقال موّقعة بإسم الحبّ. فأي جريمة ارتكبت هي؟ جريمة السرقة؟ سرقة مشاعري؟

قالت بنبرة حزينة:

- أهلا بكَ...

هي ترحّب بي، وأنا أودّعها. هنا... في القاهرة... في هذه اللحظات تختلط كلمات الترحيب بكلمات الوداع. ما أصعب أن تودّع إنساناً يرحّب بكَ! ينتابكَ شعور عجيب بالخروج عن منطق الكلمات. فكيف تودّع إنساناً يرحّب بكَ؟ لماذا هذه الاتجاهات المعاكسة؟

قلت وأنا أصافحها، وبحزن مَنْ استسلم مُكْرهاً لمنطق العقل:

- مع ألف سلامة.

لم أتمالك أن اقتربتُ منها، وعانقتها. عانقتها في الشارع، أمام الناس والناظرين، غير آبهٍ بتعليقات الآخرين. هو جنون اللّحظة الذي يديرني الآن، ومنطق اللّهفة يوجّهني. أيّ منطق في أَنْ تترك هي البلد دون أن أطبع إسم مصر على صدرها، وأغلفها بدفء مصريّ لا يعرف البرد؟ عانقتها، وقبّلتُ خدّيها على عجل.

وصلت السيّارة التي ستستقلّها، كي تتوجّه إلى مطار القاهرة الدولي. كنتُ أتمنّى أن أرافقها إلى مطار القاهرة، لكن تكاليف العودة لم تكن متوفّرة معي. ثمانون جنيهاً مصريّاً. نظرتْ حولها بطريقة حالمة، كأنّها تتأمّل الشارع، والسماء، والعمارات، ونسائم النّيل، ثم نظرت إليّ.

قالت بنبرة حالمة:

- كلّ الحبّ لمصر ولشعبها العظيم... ولكَ أنتَ أيضاً أيّها الرائع.

سرّني كلامها، وسرى في أعماقي حنين قويّ. حنين إليها قبل أن تغادر مصر. حنين ما قبل الفراق والابتعاد. ليتني استبقيها. ليتني أغلّفها بدفء كلماتها.

توجّهتْ نحو السيّارة، ثم صعدتْ فيها. تحركتِ السيّارة، ثم ابتعدتْ. وقفتُ حزيناً، وروحي تتخيّل، تراقب أجواء مطار القاهرة الدولي عن بُعْد... وبألمٍ موجع. تراقب روحي كأنها برج مراقبة. تمنيتُ لو كنت

أكرهها. الكراهية شعور بشع، لكنّها لا تحمل في ثناياها ألم وأوجاع الحبّ. كم أنا أتألّم الآن. يؤلمني الحبّ... يؤلمني الفراق.

* * *

في وقت لاحق من ذلك النّهار، ذهبت إلى بيت أختي. شقيقتي تقيم في أمبابة مع زوجها وأولادها. بيت أختي يَبْعد عن بيْتنا عشر دقائق بالسيّارة. رحّب هاني بي كعادته. كنتُ حزيناً، وأرغب في الحديث مع أحد يفهمني. هو يفهمني... دائماً يفهمني.

شعر بالحزن الذي يغلّف وجهي فسألني:

- لا تبدو مرحاً كعادتك... ما الأمر؟ هل تشاجرت مع أحد أفراد العائلة كعادتك؟

أجبته:

- المشاجرات ونزاعاتي مع أفراد العائلة هي دائماً هنا وهناك. أمّي لا تتوقّف عن مطالبتي في البحث عن عمل... وأنا لا أجد عملاً. ولا أدري ماذا أفعل.

قال محاولاً التّخفيف من التوتر الذي كان يجتاحني في تلك اللّحظة:

- لست أنت الوحيد الذي لا تجد عملاً. الكثيرون لا يجدون عملاً.

أَغْرقني الحزنُ بالصمت دقائق. رغبتي في إيجاد عمل تفوق رغبة أمّي، لكنّ الأمور خارجة عن سيطرتي. لم يكن عدم وجود العمل سبب حزني واضطرابي في تلك الأثناء. جمانة هي سبب حزني. غيابها سبب اضطرابي. فماذا أقول لزوج أختي؟ هل أخبره أنّني احببتُ فتاة تَبْعد عني مئات الكيلومترات؟ فأيّ غباء هذا؟ الغباء في أن تحبّ فتاة تقيم في بلدكَ بضعة أيام، ثم تختفي دون أن تشعر بيقين العودة. فأين هي الآن؟ أين كل الذي مضى؟ ومتى ستعود؟ وهل حقّاً ستعود؟ أرفرف الآن في فضاء المجهول. شعرت برغبة قوّية في أن أخبره عن سبب قلقي وحزني.

قلت بنبرة حزينة:

- ليس عدم إيجاد عمل هو الذي يقلقني في هذه اللحظة مع أنّني لا أنكر أنه أحد أسباب حزني.

اعتدل في جلسته مشيراً إلى رغبته في الاستماع:

- إن لم يكن العمل، إذا فالزواج هو السبب...

قاطعته:

- ليس بالضبط.

سألني:

- إذا ماذا؟ إنْ لم يكن العمل، ولا الزواج، فماذا غير ذلك؟

قلت بعد تردد:

- تعّرفت على فتاة سورية قبل بضعة أيام...

قاطعني متسائلاً:

- سورية؟ وماذا في ذلك؟ فأنت تعرف الكثير من الفتيات والنساء. ولكن ما أمر هذه الأنثى الجديدة؟

أخذتُ نفساً عميقاً، ثم قلت:

- ليست كما تعتقد أنتَ. أشعر أنني أحبّها.

ضحك هاني، ثم قال:

- تقول ذلك عنهنّ جميعاً... ثم تنسى...

قاطعته:

- لا... لا. أشعر أن الأمر مختلف معها.

قال:

- وما الذي يحزنك إذا كنت تحبّها. الحبّ فرح وسعادة، وليس حزناً.

أيمكن أن يكون الحبّ سعادة فقط؟ إن كان الأمر كما يقول، فما معنى أوجاعي التي أشعر بها الآن؟

قلت:

- هي ليست في مصر الآن. كانت في القاهرة أمس، والآن فهي ليست هنا.

غرق في الصمت دقائق. لا أدري ماذا يجول في داخله. هل يعتقد أن هذه الفتاة كغيرها من النساء اللواتي عرفتهن؟ قد يستغرب حبّي لفتاة تفصلني عنها البحار وطول الكيلومترات. لكنّني لم أرَ الاستغراب على وجهه، ولا أدري إن كان الاستغراب ينتشر في أعماقه. رأيت التعاطف على وجهه.

سألني بعد صمت:

- أين هي؟

أجبت:

- سافرت إلى بلادها.

غرق في الصمت مرة أخرى، كأنه يقول لي صمتاً: "وماذا تريد من فتاة ليست معك، ولا أمامك؟" أكلّ ما أنا فيه الآن سراب؟

قال ناصحاً:

- لا معنى أن تفكّر فيها وقد ذهبت إلى مكان بعيد. ستنساها كما نسيت مَنْ سَبقْنَها إلى حجرة قلبك.

في كلامه فَهْمٌ لسبب حزني، ولكنّ هذا الفَهْم لا يصل إلى درجة الفهم العميق. لم يكن كذلك. لا أدري أهو الذي تغيّر، أَمْ أنّ الموضوع شائك، صعب الاختراق فهماً؟ قد ألتمس له العذر. فقد حدّثته من قبل عن فتيات ونساء، وانتهى الأمر بنسيانهنّ. لكنه لا يدرك أن الأمر مختلف هذه المرّة. فهناك امرأة تشتهيها دون أن تُحبّها، وهناك امرأة تحبّها وتشتهيها في آن واحد. هو لا يجد هذا الفرق، لذلك يقول ما يقول.

قلت بعد صمت، محاولاً أن أوضّح الأمر:

- لا أعتقد أن الأمر مسألة وقت. أشعر أنّني أحببتها بصدق.

قال باستغراب:

- لكنها ليست هنا، ولن تكون هنا حسب اعتقادي. فما معنى ما أنت فيه؟

قلت آملاً:

- ستعود ...

قاطعني:

- حقاً؟

أجبتُ:

- هي قالت إنها ستعود.

سألني:

- متى؟

قلت:

- لا أدري. لم تحدّد ... ربما بعد بضعة شهور

قاطعني قائلاً:

- إذا فالأمر كلّه غامض، ويحمل صفة الاحتمال. قد تعود، وقد لا تعود ... فلماذا تعذّب نفسك بشيء قد لا يحدث؟

هو على صواب، فكّرتُ لدقائق. فماذا سأفعل إن لم تعد؟ لكن رقم هاتفها معي، والبريد الالكتروني "الايميل". يمكنني أن أستوضح الأمر منها. أتذكّر رقم هاتفها، والبريد الالكتروني، وأشعر بالارتياح لأنهما الطريق إليها. تتلاشى الخشية من عدم عودتها كلما تذكّرتهما. فقد أقنعها بالعودة على الهاتف، وسأصرّ على عودتها على "المسنجر".

جاءت أختي، في السادسة والعشرين من عمرها، وقدّمت لنا عصير برتقال. استطبتُ المشروب البارد في ذلك اليوم شديد الحرارة. غادرت أختي المكان، ثم عادت بعد دقائق وهي تحمل ابنها زياد، توقّفتُ عن الحديث مع هاني عن جمانة. لم أرغب أن تستمع أختي لحديثنا. فهي حتماً ستخبر أمّي، وستثور ثورتها ضدي. سألتني أختي عن أحوالي، فأخبرتها أنه لا شيء جديد. فلم أجد عملاً بَعْد، وأنني لا أتوقّف عن البحث عن عمل. راحت هي تتحدّث عن صعوبة الحياة، وكثرة المصاريف. وبينما كنّا نتحدّث، جاءت ابنة أختي، ملاك، تتجاوز الثالثة ببضعة شهور. أحبّ هذه الطفلة كثيراً، وأشعر أنّها تُنسيني بعضاً من همومي. وضعتها في حضني، ورحت أداعبها، وأقبّلها. هي تضحك، وتضحك. وبعد دقائق وجدتُها قد سحبتْ حبال ضحكاتي بمرحها وسعادتها. أضحك معها الآن. ما أجمل أن تغمركَ ضحكة طفل! عندئذ فقط تشعر أن الحياة ليس فيها من التعقيدات سوى الاسم. طريق خالية من منعطفات الحياة الموجعة. هكذا كانت لحظاتي مع تلك الطفلة التي شعرت أنها تَنْتَشلني من تحت أنقاض الحياة، وخرابها المستتر الظاهر.

* * *

مرّتِ الأيام، ثم الأسابيع – دون أن أحصل على عمل. لم يصلني شيء من جمانة مع أنني أعطيتها رقم هاتفي المحمول، والبريد الالكتروني. لم أستطع أن أتصوّر أن تنتهي الأمور بيننا بهذا الصمت ... وبتلك

المسافات الملغومة بالأشواق. قالت لي بأنها ستتصل، لكنّها لم تفعل. كيف يستند إيماني على أقوالها إذا؟ قالت إنها ستتصل ولم تفعل. وقالت إنها ستعود، وقد لا تعود.

كان عليّ أن أخوض التجربة. تجربة مكالمات ما وراء البحار. لم يكن هذا النوع من المكالمات غريباً بالنسبة لي، فقد تلقّيت العديد من المكالمات الدولية من صديقاتي في الغرب ... مكالمات قطعتِ القارات والمحيطات لتصلني هنا ... على أرض القاهرة. لكنّ "مفتاح" المكالمات مع سوريا لم يكن متوفّراً لدي. حصلت عليه من إحدى شركات الاتصالات في القاهرة.

اجتاحني الارتياح. الآن يمكنني أن أهاتفها، وأتواصل معها عن طريق الرسائل النصية. رنّ هاتفي، عندما همَمْتُ بكتابة أولى الرسائل لجمانة. هذه أمّي تطلبني. هي دائماً يُقلقها شأني. كيف أخبر أمّي أنني في هذا الوقت بالذات أبحث عن الأرقام، وأطارد الهواتف، وأقوم بالتنقيب عن المكالمات الدولية، كالتنقيب عن البترول. فهل سأغدو ثريّاً بالعشق، كما يقود التنقيب عن البترول والحصول عليه إلى الثراء؟

ضغطتُ على زرّ الاستقبال، وأخبرتُ أمّي أنّني سأعود بعد وقت قصير. مكالمة قصيرة مع أمّي قضت على كل أسئلتها التي حفظتها، وتوبيخاتها التي تعصف بي كلّما دخلتُ المنزل متأخّراً.

قادتني قدماي إلى كوبري قصر النّيل، حيث التقيتها أول مرّة. هذا المكان ملغوم بلحظات خالدة ملفوفة بنسائم النّيل. ألا يكفينا النّيل شاهداً على وثيقة الحبّ؟

لم أجد أجمل من كوبري قصر النيل، كي أخبرها في رسالتي أنّني أشتاق إليها، وأنّني أحبّها في غيابها، كما في حضورها، وفي داخلي توق جنونيّ لعودتها لمصر. لا أجمل من هذا المكان، كي يكون منصّة إطلاق الرسائل إليها.

اشتمّ رائحتها هنا، وأرى بخيالي ملامحها، بين هؤلاء الناس، كأنّها لم تغادر القاهرة. أرسلت الرسالة، ورحت أتصوّرها تقرأ ما جاء فيها، متمنياً أن يكون في هذه الكلمات جاذبيّة تستقطب عودتها إلى القاهرة. وقفتُ أتأمّل مياه النيل، منتظراً منها رداً على رسالتي تخبرني فيها عن أحوالها. انتظرتُ، لكنّ رسالتها لم تصل. لم يصلني أيّ ردّ على رسالتي. لماذا يا تُرى؟ ألَم تصلها رسالتي؟ أم لا تكترث بالردّ؟ لا أدري ما الذي يجري.

تلك الليلة عدت إلى المنزل برقمها الدولي، ودون عمل. أن أعود إلى المنزل بأرقام علاقات غرامية، ودون عمل لا يسرّ أمّي. هي لا تعلم عن هذه العلاقة، ولا أريد أمّي أن تعلم شيئاً. نمتُ تلك الليلة متوسّداً الانتظار. انتظار الردّ على الرسالة. "قد تردّ على رسالتي غداً، أو بعد أسبوع، أو بعد انتظار، وربما بعد يأس." قلت في أعماقي.

مرّ أسبوعان دون أن يصلني ردّها. ما هذه المساحة اللامتناهية من الغياب؟ كيف أضع حدّاً لهذا الامتداد الصامت؟ فكّرتُ متسائلاً.

خطرتْ في بالي فكرة البريد الالكتروني، "الايميل". لكنني لا أملك جهاز حاسوب، ولا أستطيع أن أتحمّل تكاليف شراء جهاز جديد، أو حتى قديم. ولكن، هناك العديد من مقاهي النت. سأذهب إلى أحد مقاهي النت كي أحاول التواصل معها.

قفزتُ من سريري، وقرّرت إن أذهب إلى أحد مقاهي الإنترنت. وقبل أن أخرج من حجرتي، جاء أخي الذي يصغرني ببضع سنوات. اقترب مني وهو يحمل كتاباً.

قال متوسّلاً:

- عايزك تفهمّني درس التاريخ ده. أنا مش فاهمه... تاريخ الوطن العربي...

قلت متذمّرًا، صارخًا:

- تاريخ إيه يا ابني؟ مَتْغور... هوّ حدّ فاهم حاجة...

تركت أخي في حجرتي، وغادرتُ المنزل في الغروب. هل سأجدها في عالم الإنترنت؟ تساءلتُ. هل تذكرني كما أذكرها؟ لماذا لم تردّ على

رسالتي؟ أَلمْ تصلها كلماتي؟ هل علقتْ رسالتي في الهواء؟ أقاصص نفسي بعدم ردّها.

في وقت لاحق، وصلت أحد مقاهي الإنترنت. عالم "النّت"... عالم التواصل... عالم تقريب البعيد.

أضفتها إلى "قائمة الأصدقاء". وانتظر الآن موافقتها على قبول إضافتي على نظام المحادثة "المسنجر".

قائمة أصدقائي هنا محدودة العدد. فهذا صديقي أيمن الذي مات قبل سنتين بسبب مرض في الكبد. لم أحذف اسمه، وآثرت أن يبقى في قائمة أصدقائي بعد موته. كان صديقاً وفيّاً طيّباً. لم أحذفه لأن مَنْ تتوطّن الطيبة والوفاء فيهم لا يُحْذَفون. هم حاضرون في موْتهم كما كانوا حاضرين ببهاء آسر في حياتهم.

وصديقي محمد الذي كان زميلي أثناء الخدمة العسكرية. هو يُقيم في الصعيد. علمت منه عن طريق الإنترنت، أنه سيتزوج قريباً. قائمة أصدقائي تتكوّن من اثنيْن. والآن أقوم بإضافة "الحبّ" إلى قائمة يُطْلَق عليها "قائمة الأصدقاء".

المكان غير مريح. يتصاعد فيه دخان السجائر. لا أحتمل رائحة دخان السجائر. لكنّني أُرْغم نفسي على تحمّل ما يكاد يقتلني كي أجد ما يُحييني. أضفتها، ورحت أنتظر أن تَقْبل إضافتي. هي في وضع "غير متّصل"،

فمتى ترى طلب إضافتي وتَقْبله؟ وكم من الوقت يمكنني أن انتظر هنا؟ هي ساعة واحدة التي خصّصتها للدخول على الإنترنت، وإن أردتُ إضافة ساعة أخرى فيجب عليّ أن أدفع جنيهاً آخر. متى ستقوم هي بتسجيل الدخول، كي أرتاح مّما أنا فيه؟

الدخان والحرّ والانتظار...

الدخان يضايقني... يصطدم بأنفاسي.

والانتظار لا ينتهي.

الشباب حولي يضحكون... يتحدّثون... يدخنون... ولا ينتظرون. بعضهم يكتب الرسائل ويرسلها، ثم يستقبلها. وبعضهم يلعب ألعاباً الكترونية... وبعضهم غارق في مواقع الكترونية مختلفة. أمّا أنا فلا أكتب، ولا أرسل، ولا أستقبل شيئاً. ولا أجد العاباً تستقطب اهتمامي، ولا مواقع الكترونية تعنيني. مع مَنْ أتحدّث في قائمة أصدقاء، تتكوّن من ثلاثة أصدقاء؟ الأول ميت، والثاني مشغول بزواجه القريب. وأما هي، فهي غائبة عن عالم "النّت". لا تردّ على رسائلي، ولا أجدها هنا، في عالم "النت". فأين هي؟ ليتني كنتُ ذلك الطيّار الذي قاد الطائرة التي نقلتها، كي أطمئنّ على سلامتها.

لكنّني لست طياراً، بل عاشقاً يبحث عنها في أزقّة الهوى، ومتاهات الشبكة العشقية. أي حبّ هذا الذي تحجبه عنّي الجبال والمدن والبحر؟ كيف أستقبل أخبار مَنْ غابت أخبارهم؟

أدور في فضاء الأسئلة، وأطير في سماء القلق. فأخشى أن لا تعود.

أنظر إلى الشباب حولي. لا أعرف أحداً منهم. ينظرون إليّ بين الحين والآخر. قد يتساءلون ماذا أفعل أمام جهاز الحاسوب دون أن أرسل شيئاً، أو أستقبل شيئاً. جالس أنا أمام الشاشة بسكون وصمت الموت، وبعمق تفكير وتساؤلات فيلسوف.

آه... آه، لو كان سامي بين هؤلاء، لوَجَدَ تفسيراً لهذه الظاهرة العشقيّة. أحتاج إلى حديثه... أحتاج إلى مدارسه الفلسفيّة التي يحدّثني عنها. ولا أدري لماذا الآن؟ لماذا الآن أحتاج إلى مدارس الفلسفة التي لم أؤمن بها يوماً. الفلسفة المثاليّة، الوجوديّة، التجريبيّة، الوضعيّة، العدميّة، الشكوكيّة، الواقعيّة، والعقلانيّة، وغيرها من المدارس الفلسفيّة. لا أعرف عنها شيئاً. هو يحدّثني عنها، وأنا أستمع بلا اهتمام، ودون رغبة. فأنا لا أحبّ الفلسفة. أيمكن أن تكون الفلسفة نظرة متعدّدة الجوانب للأمور؟ لا أدري. أنا لا أفهمها، ولا أحبّها. هو يحدّثني عنها، وأنا استمع.

عدتُ أنظر إلى الهاتف المحمول. لا ردّ على رسالتي التي حلّقت في الهواء بجسر جوّي من الأشواق واللهفة. جسر جوّي من الأشواق من مصر إلى سوريا. من القاهرة إلى حلب.

وشاشة الحاسوب أيضاً، وُشِمَتْ بالفراغ. هي لا تحلّق في أجواء "النت". ما الذي يجري؟ كأنّ الأقمار الاصطناعية أصابها الخلل. ألَمْ تعد تعمل؟

ماذا أفعل؟ أأَجلس متقوقعاً في الانتظار ساعة أخرى... مُقدّماً مزيداً من الجنيهات ثمناً للانتظار؟ مَنْ في هذا العالم يدفع المال كي يحصل على الانتظار؟

وهذا الكرسيّ الخشبيّ غير مريح أيضاً. لا شيء مريح هنا. وقتي المخصّص للجلوس أمام شاشة الحاسوب ينتهي... وها أنا على تُخوم ساعة أخرى. شاشة صامتة، ونظام الرسائل لا رسائل فيه، كأنّه تجرّد من اسمه كما يتجرّد الإنسان من إنسانيّته أحياناً.

دخان السجائر والحَرّ والانتظار... والآن اليأس. هذه قائمة "ما لا أحتمل." وإنْ قمتُ بإضافة ساعة أخرى للجلوس أمام هذه الشاشة التي لا تستجيب للعشق، فَسَتطول القائمة وتمتدّ. قائمة يذيّلها الصمت واللّاشيء والعبث.

لـن تُجـدي سـاعة أخـرى. هكـذا توقّعـتُ. قمـتُ بتسـجيل الخـروج... الخروج من الصمت. هناك شخص يقف بجانبي ينتظر مغادرتي. شخص لا يضـايقه دخـان السـجائر، ويحتمـل حـرّ المكـان. شـخص لا يسـتقبله الانتظار، ولا يصعقه اليأس كما هي الحالة معي. غـادرتُ المكان مردّداً أغنية الانتظار.

* * *

ذات يوم كنت أجوب شـوارع القـاهرة. أمشي وأفكّر في ما مضى، وأتأمّـل النـاس في الشـوارع. المحـلاّت التجاريّـة تفـتح أبوابهـا، وأصحابها يبيعون. صبيان يجوبون الشوارع، يبيعون مناديل وورود، وبضائع أخرى بسيطة يستطيعون حملها. اقترب منّي أحد الصّبيان، يعرض عليّ شراء وردة. لِمَن الوردة يا تُرى؟ لِلّتي غابت؟ وكيف ستصلها؟

اشتريتُ الوردة مدفوعاً برغبة إسعاد الصبيّ. دفعتُ له جنيهاً مع أنّني لا حاجة لي إلى الوردة، وحاجتي للجنيه قد تفوق حاجة الصبيّ إليه. هذا الصبيّ أجمل من الورود التي يحملها. بكلّ هذا البؤس الذي يلفّه، فهو أجمل من الورود. هو في العاشرة من عمره تقريباً، يحمل أعباء الحياة، وينتعل غبار الأيام. أَتَحْمِل كتفاه الصغيرتان عبء الحياة، وتنتعل قدماه غبار الأيام كي يعطينا وُيْفرحنا بالورود؟

هو أجمل من الورود التي بين يديه، لأنه عطاء متواصل، والورود التي معه ذابلة بعد وقت قصير. ذابلة هذه الأزهار بعد بضع ساعات. فأيّ عطاء ينطلق من ذبول؟ الجمال في العطاء وليس في الذبول.

ابتسم الصبيّ، وانطلقتِ السعادة من عينيه الحمراوين من أشعّة الشّمس. اسعدتني ابتسامته على الرغم من الحزن واليأس اللذْين كانا يغلّفانني. اسعدتْني ابتسامة الصبيّ هذا، وما كانت لعظائم الأمور أن تُسعدني، أو تُخْرجني من آبار اليأس.

أمشي في الشوارع، وأرى بعض الصبية والرجال. هم يفترشون الأرض، ويتوسّدون الحرمان، غارقين في النوم، لا توقظهم أصوات السيّارات، وأصوات المارّين ولا لسعات أشعّة الشمس. أَهُمْ في عشوائيّة الأيّام؟ أَمْ في عشوائيّة النّوم؟ عاملون، مثابرون هم، على حافّة الابتسامة. ابتسامة الحياة.

يلدغ القلب سكون هؤلاء الذين يفترشون الأرض، بعد ساعات عمل شاقّة، في أزقّة الرّزق. فأبناء مصر أكبر وأعظم من أن يفترشوا الأرض. هم قامات عالية كما الأغصان السامقة. هل ضاق بهم حضن مصر؟ كلاّ لم يضق. فحضن مصر يتّسع لي، ولهم ولكلّ شخص انطلق من رحمها. هؤلاء لا يبيعون الورود كي أشتري منهم وأدفع هذه الجنيهات القليلة التي معي، لعلّ الابتسامة ترتسم على وجوههم. لكنْ، أي ابتسامة هذه التي ستتجاوز كل بؤسهم وحرمانهم؟!

أتابع المشي في الشوارع حاملاً وردة صفراء. قد يعتقد البعض أنني سأهديها لعشيقة أو خطيبة. ولكن لن يخطر في بال أحد مِن هؤلاء الناس أنني اشتريتها كي أهدي طفلاً ابتسامة.

سَعِدَ هو بالجنيه، وسعدتُ أنا بالابتسامة... ابتسامته هو. أما الوردة، فهي بيدي. ليست لخطيبة. أمّا الحبيبة فطارتْ، ولا أعلم شيئاً عنها سوى أنّها تحبّ الفنّان المصري محمود عبد العزيز، وتحبّ الكوشري المصري، وتعشق النّيل عشقاً أسطوريّاً. أنظر إلى الوردة الصفراء وأقول في داخلي، "إن لم يكن الورد لعاشقة النّيل فَلِمَن سواها؟"

أيّتها الوردة ارتفعي...

ارتفعي وحلّقي في أجواء العشق...

وانثري رحيقك في سمائها...

وغلّفي جسدها وروحها بعطر العودة...

تحبّ هي الكوشري المصري... تعشق النّيل... وتحب الفنّان محمود عبد العزيز. أَيبْتَعِد عن مصر مَنْ يحتوي كلّ هذا الحُبّ والعشق؟ "الله... الله عليك يا محمود عبد العزيز. لا تزال تسحر النساء وَتْفتِنَهنّ.

عدتُ أفكّر في ذلك الصبيّ الذي يجوب الشوارع كي يبيع الورود. هو حتماً يتعرّض لصعقات كثيرة من الصَدّ والرفض. صدّ ورفض مَنْ لا

يملكون ثمن وردة. فماذا يفعل فم جائع بوردة؟ مع ذلك، هو لا يتوقّف. يجوب الشوارع آملاً أن يتعثّر بِمَن يملك ثمنها.

في تلك اللّحظة شعرت برغبة قويّة في البحث بشكل متواصل عن عمل. ورحت ألتمس لأمّي الأعذار في توبيخاتها التي توجّهها إليّ بسبب أيّامي التي أقضيها بلا عمل. يجب أن تعمل كي تعيش. في هذا الزّمن، لا حياة مُبْتَسِمة بلا عمل... ولا كراااااامة.

* * *

مرّ ما يزيد على شهر، فشهران، ثم ثلاثة دون أن أجد طريقاً إليها عبر "الانترنت،" كأنّها ضاعت في دهاليز الشبكة العالميّة. أبعث الرسائل النصيّة بوساطة الهاتف المحمول. رسالة تتحدّث عن اشتياقي العميق إليها. ورسالة عن الرغبة في معرفة أوضاعها وأحوالها. ورسالة تصف تعبي واستيائي من تسلّق جبل الانتظار. رسائل كثيرة تطير عبر الفضاء إلى دولة أخرى... إلى قارّة أخرى... إلى مخابئ قلبها. أكانت تصلها الرسائل يا تُرى؟ وإن كانت تصلها فما سبب عدم ردّها؟ أتساءل... أتساءل... ثم اتقوقع تحت ركام الانتظار، وبين نِثار الأسئلة.

ألتقي بين الحين والآخر مع أصدقائي المصريين. نتحدّث ويطول حديثنا ويتشعّب، عن مواضيع مختلفة. أحدهم يحدّثني عن مشاكله في عمله. والآخر يحدّثني عن علاقته بصديقته. وثالث يحدّثني عن رغبته في

الزوّاج، ولا يستطيع أن يتحمل تكاليف الزواج أو الخِطبة. ورابع يحدّثني عن رغبته في السّفر إلى إحدى دول الخليج. سألني أحدهم عن الفتاة... عن جمانة. أخبرني أنه رآنا بيْنما كنّا نمشي على كوبري قصر النّيل. أخبرته أنّها ليست من مصر، وأنّها من دولة عربية. لم أرغب في قول المزيد عنها. فالمشاعر العميقة لا يمكنكَ أن تنتشلها من أعماق مُحْكَمة الاغلاق. هي المشاعر العابرة التي تطفو على السطح. وما أسهل أن تكون في المتَناول! بينما المشاعر العميقة لا يمكنها أن تجد طريقاً إلى المُتَناول.

* * *

ذات يوم من أيام سبتمبر أتّصل بي سامي. شعرتُ برغبة في الحديث معه، مع أنّني لا أحبّ تعقيداته للأمور عندما يتحدّث إليّ. أخبرته أنّني سألتقي به في أحد مقاهي القاهرة. أخبرتُ أمّي أنني سأذهب كي التقي بأحد أصدقائي. لم تقلْ شيئاً. يبدو أنها قرأت الصّدق في تعابير وجهي.

كعادتي، ذهبتُ بسيّارة أجرة. مَللْتُ سيارات الأجرة. كم كنتُ أرغب في أن تكون لي سيّارة. أقودها وابتعد عندما أجد نفسي في عمليّة بحث عن الذّات. ولكنْ، كيف أحلم بالسيّارة قبل أن أحصل على رخصة للسّواقة. الرخصة أوّلاً. كنت قد قرّرت أن أحصل على رخصة للسواقة في وقت سابق، لكنّ الأمر تعثّر بالمشاكل الماديّة. والآن. كيف سأحصل على رخصة سواقة دون عمل؟ إذاً فالعمل أوّلاً.

عندما تنظر من نافذة السيّارة، تتدافع الأفكار إلى رأسكَ، خاصة عندما لا تجد أحداً تعرفه تتحدّث معه. السيّارة تسير في شوارع مصر، والأفكار تسير في طرقات رأسي. السيّارة والأفكار تسيران، كأنّهما في سباق.

أتحدّث مع نفسي الآن صمتاً. لم أجد عملاً بَعْد، ولا أدري إلى متى سأبقى هكذا بلا عمل. وأمّي لم تَعُد تحدّثني عن الفتاة التي اختارتها لي كي أتزوّجها، خاصة بعدما أعلنتُ رفضي لهذا الزّواج عّدة مّرات. على الرغم من أنّ الفتاة جميلة، لكنّ جمالها لم يستطع أن يشقّ طريقه إلى قلبي. يُقال: "أنتَ تعشقُ امرأة، ولكنّك تتزوّج أخرى." ما هذا؟! ولماذا؟ ما هذا الرشْق العبثيّ لمشاعرنا؟! استهجن هذا ولا أفهمه. كأنكَ تطلب من سائق أن يقودكَ إلى القاهرة، فإذا به يأخذكَ إلى بور سعيد. هكذا بدا الأمر لي. الحياة لا تسير مع مشاعرنا، ولا تتواطأ معها، ولو رفقاً وشفقة.

وضعتُ يدي في جيبي، وأخرجت خمسة عشر جنيهاً، أجرة السائق. بقي في جيبي عشرون جنيهاً. دفعت أجرة السائق بِحُزْن الفَقْد. أفقد خمسة عشر جنيهاً. لو كنت أعمل لما كان أمر الخمسة عشر جنيهاً يكدّرني.

وصلت القاهرة، ووصلت المقهى الذي اتّفقنا أن نلتقي فيه. سامي يجلس بهدوء عند طاولة بسيطة في المقهى. هو ينتظرني. لكن مع جمانة، فإنّ الانتظار من نصيبي أنا.

على غير عادته، لم يحدّثني سامي عن المدارس والآراء الفلسفية، ونظريّات علم النَّفس التي يغرق فيها تفكيراً. في البدء، حدّثني عن امتحاناته التي وصفها بالصعبة، والأبحاث الدراسية التي وصفها بالشّاقة. ثم راح يتحدّث عن هموم بلده، فلسطين. نضال شعب لم يَنَلِ الحريّة بَعْد، ومعاناة شعب لا يزال يرزح تحت الاحتلال. وتطرّق في حديثه إلى مرارة وكارثة الانقسام بين الضفة الغربية، وقطاع غزّة. أستمع إليه باهتمام وهو يتحدّث بحزن عن شعب مُحْتَلّ، وشعب رشَقَتْه الأيّام ببلاء الانقسام. لم أدرِ ماذا أقول. فقد أخرستْني حساسية الموضوع الذي يتحدّث عنه. لكنّني شعرتُ في أعماقي بتعاطف قوي مع شعب عانى كثيراً من الاحتلال. بعد حديث طويل عن أبناء بلده، راح يحكي حكاية صديق له في رام الله، كان يتحدّث إليه عبر "الانترنت". صديقه الآن قد تمّ اعتقاله، وهو موجود في أحد السجون الإسرائيلية. أخبرني أنه عرف عن أمر الاعتقال من شقيق صديقه المعتقل عندما كان يردّ على اتصال هاتفيّ قام به سامي. ثم عرّج في حديثه إلى القدس وحرمان آلاف الفلسطينيين من دخولها.

قال بحزن محروم:

- أتصدّق يا فتحي؟

قلت:

- أصدّق ماذا؟

قال:

- أتصدّق أنني لم أرَ القدس منذ سنين طويلة. لم أرَها، ولم أستطع دخولها، وهي التي تَبْعد عن رام الله ثمانية عشر كيلو متراً تقريباً.

أستمع دون أن أردّ. التعاطف معه في داخلي يتصاعد. شعرتُ برغبته في الحديث دون أن يْنتَظر ردّاً منّي، كأنّه يفرّغ كبْت سنين، ويزيح ثقل الهموم عن صدره.

أردف يقول:

- دخولي القاهرة التي تقع في قارّة أخرى أسهل بكثير من دخولي القدس التي تبعد عن رام الله ثمانية عشر كيلو متراً تقريباً.

قلت بصدق عميق:

- مصر هي بلدك، وهي تَتّسع للجميع. تَتّسع لكلّ عشّاقها. والشعب المصري في دعم مستمرّ للقضيّة الفلسطينيّة.

قال:

- مَنْ يَدْخل مصر يشعر بدفئها. والشّعب المصري له مكانة خاصة وعالية في قلب الشّعب الفلسطيني.

في ذلك اليوم الحار طلبنا مشروباً بارداً، عصير مانجا. كنت أشعر بالضّيق في تلك اللحظة بسبب عدم حصولي على عمل. خيّم الصمتُ دقائق.

قلت بعد أن شربت بعض العصير:

- لا أجد عملاً، ولا أدري ماذا أفعل. يجب أن أعمل... الحياة قاسية...

قاطعني بابتسامة:

- وبنو البشر أكثر قسوة.

قلت موضّحاً:

- كلّما طرقتُ باب عمل، يطلب منّي أحدهم شهادة جامعية، وآخر يطلب خبرة، وثالث يطلب إتقان لغات أجنبية قراءة وكتابة... ورابع يطلب مني أن أنتظر...

قاطعني سامي بكلام غريب:

- وأنت ماذا تطلب؟

أجبته متعجّباً من سؤاله:

- أطلب عملاً.

قال كلاماً غريباً، لكنّه منطقيّ بعض الأحيان:

- لا تصرّ على طلب الشيء، فإنّ الاصرار والإلحاح عليه يعطبه...

ابتلعتُ كلماتي بعض الوقت، وأخذتُ نفساً عميقاً، وغصتُ بتفكيري في أعماق كلامه. كأنه يقول بصيغة أخرى، "هي الأمور تأتي بطريقة سريعة عندما لا تكترث لها." ربما يحدث هذا أحياناً. على الرغم من غرابة كلماته إلا أنّي أشعر أنّه يلّفها شيء من المنطق. أَلمْ أتعثّر بسحر جمانة عندما كنتُ أمشي على كوبري قصر النّيل دون هدف محدّد؟ والآن بعدما ذهبتْ لم أعد أعلم عنها شيئاً على الرغم من الرسائل التي أرسلها، ومطاردة آثارها على "الانترنت". رسائلي المتكرّرة، ومطاردتي المستميتة لها في أروقة "الإنترنت" لم تُجديا نفعاً، بل أصابهما العطب. ما معنى كلّ هذا؟ لا أدري.

قلتُ بعد صمت متسائلاً:

- أتعتقد هذا؟

لاذ بالصمت ثوانٍ، ثم قال بعد أن شرب العصير:

- ها أنت تستميت في البحث عن عمل. فهل وجدت ما تبحث عنه؟

معنى كلامه أنه ينبغي عليّ أن أنتظر. الولوج في دائرة الانتظار. تأمّلت كلامه، وتعمّقتُ في تحليلاتي لمضمون كلامه، ثم، وفجأة، شعرت

برغبة شديدة في الضّحك. الضّحك على ماذا؟ الضّحك على كل هذا... وكلّ ذلك. الضّحك على فكرة الانتظاااااار. أنتظر جمانة، أنتظر العمل، وأَنْتظر ما لا يُنْتَظر. ضحكتُ وغلّفتِ الدّهشةُ وجهه من ضحكاتي. تُراه أدرك لماذا أضحك؟ أضحك من شدّة حزني على أيّامي التي تتساقط جافّة، ضعيفة، شاحبة كأوراق الأشجار في فصل التّساقط... فصل الحيرة والشحوب. فصل الخريف. كأوراق الخريف غدت أيّامي. تمرّ دون أن أحقّق شيئاً، ودون أن أنْجز ما أريد. تَتَفَلّتُ أوراق أيّامي من أغصان سنينها، وتتبعثر الدقائق، ويتبعْثر الزّمن، كأنه إنفلات زمنيّ. تطايَرتْ ضحكاتي في أجواء المقهى، ثم تلاشت.

نظرتُ إلى سامي وقلت مازحاً:

- أتوقّع لكَ الجنون...

ضحك، ثم قال ساخراً:

- هذا زمن غياب العقل، وإنْ كنتُ أدرس حكمة العقل والمنطق.

سألته مُغيّراً مجرى الحديث:

- لم تحدّثني عن قلبك، كما يفعل أصدقائي. ما هي أخبار الغرام في عالمك الفلسفيّ؟

غرق في صمت قصير، ثم قال:

- أحبّ فتاة. إحدى زميلاتي في الجامعة... مصريّة.

قلت متسائلاً:

- هل أخبرتها أنّك تحبّها؟

قال بصوت هادئ:

- لا... إذا كان الشّخص الذي تحبّه لا تصله مشاعركَ وأحاسيسكَ تجاهه، فلا أهميّة للكلام. فقوّة الأحاسيس أقوى وأعمق من قوّة الكلام.

أقنعني كلامه بعض الشيء، لكنّني قلت:

- بعض الأحيان تشعر بحاجة إلى الحديث إلى الآخرين...

قاطعني بنبرة قوية:

- فقط عندما تفتقر المشاعر إلى العمق والثّبات، فإنّ الكلام يعمّقها ويسندها.

غرقت في تيه كلامه، وتسائلتُ: "لماذا ينظر إلى الأمور هكذا؟ لماذا لا ينظر إلى البساطة؟ هي الأمور تبدو أكثر جمالاً ببساطتها أحياناً".

قلتُ مازحاً:

- هل الفلاسفة يعشقون؟

ابتسم، ثم سأل:

- أتعتقد أن الحبّ يخترق غيرهم؟

سألتُ:

- كيف ذلك؟

أجاب:

- هم الفلاسفة الذين قالوا كلاماً خالداً رائعاً في الحبّ.

تساءلتُ متعجباً:

- الفلاسفة؟!

قال:

- أجل. أتجد أروع من قول جورج صاند، "كلّما ازداد حبّنا تضاعف خوفنا من الإساءة إلى مَنْ نُحبّ؟،، وأمّا قول كورنايل، "يصعب أن نكره مَنْ أحببناه كثيراً." وأمّا تحليل سرفانتيس الرائع للغيرة التي ترتبط بالحبّ إرتباطاً قوياً، حين قال: "الغيرة هي الطاغية في مملكة الحبّ."

أقوال في الحبّ، في منتهى الروعة والجمال لفلاسفة وأدباء عالميين لم أسمع عنهم من قبل. أيمكن أن ترتبط تعقيدات الفلسفة وجدّتها

برقّة الحبّ؟ ها هما يلتقيان هنا... في هذا المكان... في هذه الأقوال الرائعة.

لم أتمالك أن سألت:

- مَنْ هؤلاء الأدباء والفلاسفة الذين ذكرت أقوالهم قبل قليل؟ لم أسمع عنهم من قبل؟

أجاب:

- جورج صاند هو الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية أمانتين دوبين. اشتهرت في كتاباتها في الفلسفة والحب. وأما سرفانتيس فهو كاتب إسباني. كونايل كاتب فرنسي.

حديثنا يتدفّق عن الحبّ في الوقت الذي غابت فيه حبيبتي، وفي الوقت الذي لا يجد فيه هو ما يقوله لحبيبته. ما أروع حديثنا! وما أغرب ما نحن فيه! هنا في القاهرة... في سيّدة المدن وأروعها نغنّي للحبّ. الحبّ بِقيَمِه السّامية.

في وقت لاحق، غادرنا المقهى. هو توجّه إلى شقّته في مدينة نصر، بينما عدت أنا إلى البيت في أمبابة مدفوعاً بالجوع.

الفصل الخامس

تمرّ الأيام، وينقضي شهران. تُزْهر ورود الأيّام فرحاً. ها هي الأيّام تلوح بالسعادة، وتُضْفي على حياتي بهجة لا عَهْد لي بها. بعد انتظار قد طال، وصبْر قد نفد، وجدتُ ما كنت أبحث عنه. وجدتُ جمانة. وجدتها في ثنايا "الإنترنت". وتَرِدُني مكالماتها الهاتفيّة. أخبرتها في إحدى مكالماتي الهاتفيّة أنّني وجدتُ عملاً، وأصبحتُ أعمل كميكانيكيّ في "كراج" في القاهرة. وسألتها عن سبب عدم اتّصالها، وعدم تواجدها على الإنترنت، فأخبرتني أنها ستقول لي عندما تأتي إلى القاهرة.

ما أسعدني في تلك الأيام! وجدتُها، ووجدْتُ العمل أيضاً. أصبحتِ الاتصالات بيْننا تارة على الهاتف، وعلى "الإنترنت" تارة أخرى. ولكن، ما سيّج سعادتي بأحلام الرغبة، هو قولها لي إنها ستعود إلى القاهرة في شهر فبراير. معنى ذلك شهران من الآن.

عدتُ إلى خندق الانتظار. كنتُ أنتظر اتّصالها، وتواجدها على "النت". وها هي قد اتّصلت، وتواجدتْ على "النت". والآن أنتظر أن تهلّ على القاهرة، وتهلّ على قلبي كفرحة العيد. الآن... الآن الانتظار له معنى آخر. انتظار مغلّف بيقين الهدف. فعودتها إلى القاهرة أصبحت هدفي. في السابق، كان انتظاري لها مغلّفاً بالاحتمالات أحياناً، واليأس أحياناً أخرى. الآن تورّدتِ الأيّام بعوْدة يلّفها شهر فبراير.

صوتها على الهاتف يُشْعرني بالحياة... حياة علاقتنا... وحياة روحيْنا. يَعْبُر الحدود والبحار ويعتلي الجبال، ثم يهبط بمظلّة الحبّ كي يستقرّ في أذني ويهمس أنها لم تنسَني.

* * *

وفي أحد الأيّام، ذهبت إلى مقهى "للنت" كي أتحدّث إليها، لأنّ الحديث على "النت" أقلّ تكلفة من المكالمات الدولية. أصبحنا نحدّد الوقت الذي يناسبنا كي نتحدّث على النت. ما أروع الانترنت! هذه الشبكة العالمية التي تقرّب قلوباً أبعدتْها الأقدار عن بعضها. تتناثر وتتطاير كلمات العشاق في فضائها كأنّها ملاحة غراميّة. وعلى الرّغم من غياب الحياة في تلك الكلمات الصامتة التي كنّا نتبادلها على نظام المحادثات الفوريّة، إلاّ أنّ تلك الكلمات كانت تطرق باب الذاكرة... ذاكرة الحبّ.

بعد أن تحدّثت إليها على نظام المحادثات الفورية، "المسنجر"، انتقلت إلى موقع التواصل الاجتماعي، "الفيس بوك". هي ليست على هذه الصفحة... ليست ضمن هذه القائمة الطويلة، والمساحة الواسعة من ما يُسمّى "الأصدقاء". فأقرب الناس إلى قلوبنا لا نجدهم على صفحات تظلّلها الفوضى البشريّة، صفحات "الفيس بوك". مَنْ نُحبّ ونعشق هم على صفحة تواصل عشقيّة في القلب. فكيف أَنْثرُ أشواقي ومشاعري تجاه مَنْ أحبّ على صفحة تتناثر عليها الأسماء، وتُطْبَع عليها الوجوه... وأشباه وجوه؟

غريب عالم "الفيس بوك" هذا. تفتح الصفحة فتجد قائمة طويلة من الأصدقاء. أصدقاء دون المعنى الحقيقيّ للصداقة معظم الأحيان. ومع ذلك فهم هنا... أمام عينيك... وعلى صفحة ترتبط باسمكَ. أشخاص حلّوا ضيوفاً على صفحتك، إما لأنهم تعثروا بصفحتكَ مصادفة، أو تعثّرتْ صفحتكَ بأسمائهم وصورهم. أشخاص يولدون على صفحتكَ لمجرّد أن تضغط على المؤشر بالقبول، ويموتون ويختفون من صفحتكَ لمجرد أن تضغط مرة أخرى. أهي صداقة يُنْجِبها الضغط على الأزرار؟ أصدقاء يولدون إضافة، ويموتون برصاصة حذف. ما أعجب هذا العالم... عالم الفيس بوك!

"أصدقاء"... "أصدقاء" بأسماء وصور حقيقية، وأسماء وصور غير حقيقية. أسماء وصور أشخاص غير حقيقية! أهم يختبئون في ثنايا صفحات تعارف؟ إذاً لماذا هم هنا إذا أرادوا الاختباء؟ أهم يرتدون الخداع على صفحات "الفيس بوك" العارية؟

أنظر الآن إلى صفحتي. فيها أشياء كثيرة إلاّ حقيقة نفسي... وأعماق ذاتي. هذه صفحة لا يوجد فيها إلاّ قشور ذاتي. هل أجرؤ في هذه اللحظة أن أكتب اسم حبيبتي، وأخطّ مشاعري بعمق الأعماق على هذه الصفحة؟ كلاّ، لا أجرؤ. صفحات الفيس بوك هذه تتلقّى كل شيء إلاّ حقيقة الذّات. هكذا شعرتُ.

رحت أتأمّل قائمة "الأصدقاء". بعضهم لا أتحدّث إليه، والبعض الآخر لا يتحدّث إليّ. ولكنْ هؤلاء هنا... على صفحتي. ربّما لأنّي عرفتهم بالاسم، أو بابتسامة، أو بعبارة مجاملة جمعتنا في مكان ما، فأصبحوا يرتدون ثوب الأصدقاء قَدَراً، أو إضافة دون تفكير عميق.

أسماء... أسماء أشخاص تتدحرج أمامي الآن. مَنْ كلّ هؤلاء؟ أصدقاء أم حوادث اضافة؟ وأين أسماء وصور أشخاص كنت أراها؟ يبدو أنّها ماتت بحادثة حذف.

"علاقات" الأزرار والشاشات هذه لا تعمّق الصّلة، بل تشوّشها أحياناً.

ماذا أراد مخترع الفيس بوك من وراء اختراعه هذا؟ أن نتواصل؟ ها أنا أتواصل مع مَن لا يهمّني أمرهم، وأما مَنْ أحبّ فأتواصل معها بوساطة اختراع آخر... الهاتف. أتواصل بحرارة الحياة...

غادرت المقهى في وقت متأخر من تلك الليلة. أمشي في الشوارع كعادتي، وأرى فتيات. تعجبني بعضهنّ، فابتسم لهنّ، لكنّ قلبي ينبض بعشق المسافات البعيدة، كأنه يستهويني الشّقاء، وصعب المنال. ما الذي يمنعني مِن أن أذهب مع هذه الفتيات؟ أنا الذي كنتُ مفتوناً بمنطق أنثى "اللحظة". ما الذي يمنعني أن أتّبع هذا المنطق الآن؟

شعرتُ بشيء من فراغ الأعماق في تلك اللحظات. كلّ ما حولي لا يملأني. لكنّ الذي يملأ بعضاً من بعضي هي تلك الاتصالات الهاتفية،

والمحادثات عبر الانترنت. والأهمّ من ذلك كلّه، هو اقتراب موعد عودتها إلى مصر. شهر فبراير... يعني شهر من الآن. بعد ثلاثين يوماً تقريباً ستكون في الطائرة، تحلّق في أجواء القاهرة.

فكّرت أن أذهب إلى صديقي سامي في ذلك الوقت المتأخّر من الليل، لكنني تراجعت بعد دقائق. ربما يكون نائماً، وقد يكون غارقاً في ابحاثه. هذا الشّاب يحدّثني عن الحبّ ولا يعلم كيف يحبّ. يحبّ فتاة، ولا يدري ماذا يفعل معها. يحبّها صمتاً... فماذا سيَجْني من صمته؟

عدتُ إلى البيت... ولحسن حظّي، والداي كانا نائميْن، والبيت ساكن. ولجت حجرتي بصمت. لا أسئلة، ولا توبيخات. غارقون هم في نومهم.

ما أن ارتميت على سريري، حتى وصلتني رسالة على الهاتف المحمول. تصلني رسائل كثيرة من أصدقائي في مصر، وصديقاتي خارج مصر. على الرّغم من أنّني لم أشعر برغبة في قراءة أية رسائل في تلك اللحظة، لكنني أمسكت بهاتفي المحمول ونظرت إلى الشاشة. ابتسمت عندما رأيت الرقم الدولي. ورحت أفتح الرسالة بقلب خافق عشقاً. كلمات تبرق حُبّاً. وحروف تتلألأ غراماً... غرام المسافات البعيدة. تتراقص فرحتي على موسيقى نِثار كلماتها التي امتدّتْ واتّسعت كأشواقي إليها.

أقرأ الآن الرسالة بصمت وفرح، رسالة طويلة تنتشر فيها كلمات غراميّة بأشواق إنشطاريّة. رسالة بدت كصفحة من كتاب عشق:

"منذ كنتَ أنتَ... حبيبي.

على أعالي الكلمات كتبتكَ،

منذ أصبحتْ كلمات الوصف لا تطالكَ.

خارجٌ أنتَ عن النّص،

باشتياقي الموجع إليكَ...

أشتاقكَ...

أشتاقكَ كلّ حين...

وأشتاقكَ قبلكَ... وبعدكَ.

أأنتَ تُدير الزّمن؟!

أمْ تُدير شؤون العشق؟!

أمْ تنفض غبار مقاييس الوقت؟!

أمْ كلّ شيء؟!

وكل شيء؟!

بكَ يُقاسُ الزمن...

وتقاسُ المسافات...

وبكَ تنشأ أماكن العشق.

يا عالَماً بكلّ تفاصيله... ومقاييس غرامه.

أتوق إليكَ...

وأتوق... أتوق إلى موسيقى روحيْنا...

إلى ذلك اللّحن المثير على شفتيكَ...

وأتوق إلى عَزْف لحن الكلمات بين ذراعيكَ...

يا أنتَ...

أيها الزّمن الممتدّ في أعماقي...

بك تُحْسبُ السنون...

وتُعَدّ بكَ أيّامي.

قال غَدي لأمسي: أنتَ به أحلى...

وقال أمسي لِغَدي: أنتَ به ستكون أشهى...

وأمّا حاضري فردّ قائلاً: وأنا به أبهى...

فعرفتُ أنّه حبيبي...

وأدركتُ أنه زمن لا ينتهي.

مُنْذئذٍ اكتشفتُ التّقويم العشقيّ.

يا أنتَ...

يا زمناً قد مضى...

يا أيّامي الآتية...

ما أنْ أنتهي منكَ...

حتى أبدأ بكَ في دورة عشقيّة عجيبة".

قفزتُ من سريري، تعتريني دهشة عجيبة، وفرحة لم أشعر بها من سنين طويلة. أيعقل كل هذا الكلام بعد كلّ هذا الغياب؟! ما كلّ هذا المطر العشقيّ بعد شهور طويلة من جفاف الكلام الغراميّ؟!

يا دهشتي...

يا فرحتي...

يا حبيبتي... ما كلّ هذا؟!

أتَنْسُجينَني خيوطاً شاعريّة...

وحروفاً غراميّة على سطور المشاعر والحبّ.

يا أنتِ...

يا أنتم...

يا أيها العالم... ما كلّ هذا؟!

أطير، أرتفع عن "الأرض"... أطير دون أن يرتفع جسدي. لكنّ روحي ترتفع وتحلّق كما النّسور. تحلّق روحي فرحة في فضاء الحجرة... وفي فضاء الكوْن. أيتّسع لفرحتي الغراميّة كوْنٌ ضاق بالحبّ؟!

قبل قليل كنتُ على تخوم النّوم، والآن فإني في أعماق الحبّ، وفي بؤرة السعادة. كيف لهدوء النّوم أن يأتي بعد ما اصطدم بثورة الفرحة؟ هو لن يأتي. النّوم لن يأتي، وثورة المشاعر في داخلي لن تتوقّف.

ارتميتُ على سريري، ليس رغبة في النوم، بل رغبة في قراءة ما قرأتُ. أكلّ هذه المشاعر المتدَفّقة تحتويها شاشة صغيرة أمامي؟! فهذه المشاعر الغزيرة لا تحتويها سوى حُجَيْرات القلب.

ليلة مضيئة ومشرقة بالفرح... صاخبة بالحُبّ والمشاعر. ليلة غاب عنها سواد الليل المألوف، وودّعها الهدوء.

* * *

تمرّ الأيّام. أَعُدّ... أَحْسِبُ... أطرح الأيام بدقائقها، وساعاتها. أشطب أسابيع انقضتْ، وأراقب أسابيع آتية بعينيْن يقظتيْن، وقلب مُتلَهّف، وبأنفاس لاهثة شوقاً. أعدّ، وأطرح، وأدخل في دهاليز العمليّات الحسابيّة، كي أحدّد موعد عودتها.

صباح يوم من أيام ديسمبر من العام 2010، كنت في عملي. قمت بتغيير الزيت لإحدى السيّارات. ثم انتقلت إلى سيّارة أخرى، كي أصلح المحرك. ضحكت في أعماقي عندما لاحت في ذهني فكرة علاقاتي مع الفتيات والنساء، وعمل الميكانيكا هذا. أفكّ براغي سيّارة، وأثبّت براغي سيارة أخرى، تماماً كما أرتبط بعلاقة غراميّة وأثبّت صلتي بها، وأفكّ روابط علاقة غراميّة أخرى. أضحكتني فكرة العلاقة الغرامية عندما ترتبط بالعلاقة "الميكانيكيّة."

تقدّم شاب يعمل معي، كي يناولني مجموعة من البراغي. بعد دقائق، راح يُسري يحدّثني عن شاب تونسيّ أحرق نفسه، شدّني الحديث عن الشاب التونسيّ الذي لم أعلم شيئاً عن حكايته.

سألت يُسري:

- ما الذي جعله يحرق نفسه؟

أجاب:

- فعل ذلك احتجاجاً على مصادرة سلطات البلديّة في مدينة سيدي بو زيد لعربة كان يبيع عليها الخضار. معظم وسائل الاعلام تتحدث عنه.

تثير الدّهشة حكاية هذا الشاب التونسي. يتملّكك التفكير في هذا الشخص الذي يبعد عنكَ مئات الكيلومترات، ولا تربطك به علاقة ما، لكن ما حدث له يستحوذ على التفكير. فنحن العرب لم نألف أمراً كهذا. حَرْقُ النّفس. ما الذي يدفع الانسان إلى تحمّل أَلَم حرْق النّفس؟! ألانّه لم يَعُدْ يحتمل أَلَمَ الحياة؟ بعد تفكير عميق في أمر هذا الشاب، أخبرني زميلي الذي كان يسحب أنفاساً من سيجارته، أنّ وسائل الإعلام تتناول أمر الشاب التونسيّ. يتحدّث يُسري ويتحدّث، بينما أنا أفكّر في الألم الذي شَعَر به الشاب التونسيّ وهو يتخلّص من الحياة. نسمع عن طرق ووسائل عديدة للتخلّص من الحياة، تتفاوت هذه الطرق في الألم

والمدّة وإثارة الضجّة حولها. فهناك مَنْ يتخلّص من الحياة بإطلاق النار على نفسه، وهناك مَنْ يتناول كميّة كبيرة من الأدوية، وهناك مَنْ يُلقي بنفسه عن مبانٍ مرتفعة. أمّا أن يُشْعل شخص النار في جسمه فهذا لم يطرق باب سنين عمري، خاصة أن يكون هذا قد حدث في منطقة عربيّة. شاب عربيّ الآن يحرق نفسه، ويثير ضجّة كبيرة تتناول تفاصيل قصته، وحكاية عربة الخضار خاصته. أهو يطرق باب الموت على عتبة الرّزق والحياة؟

في وقت لاحق من ذلك النهار، الثامن عشر من ديسمبر، وبعد الانتهاء من عملي، توجهت إلى البيت. وفي طريق عودتي إلى البيت، في أمبابة، سمعت العديد من الناس يتحدّثون عن قصة الشاب في تونس. يردّد الناس اسمه هنا وهناك، محمد بو عزيزي.

وصلت البيت متعباً، جائعاً. تناولت طعامي، في الوقت الذي كان أفراد الأسرة يشاهدون التلفاز، يتابعون أخبار هذا الشاب الذي أحرق نفسه. والدي يشاهد التلفاز، وأمّي تبدو السعادة في وجهها. السّعادة لأنّني وجدت عملاً في وقت يصعب فيه ايجاد العمل. العمل، برأيها، سيبعدني عن مغامراتي مع الفتيات. وما أتقاضاه شهرياً، وهو ألف وخمس مائة جنيه، سيساهم في زيادة دخل الأسرة، وسيؤدي إلى اعتمادي على نفسي. هذا ما كانت تخبرني به أمّي بعدما حصلت على

العمل. أمّي على صواب في كلّ هذا. أَلَمْ يكن عدم وجود عمل هو سبب ما حلّ بهذا الشاب التونسيّ؟

بعد أن أنهيتُ طعامي، رحتُ أشاهد التلفاز باهتمام، كأنّني لا أصدّق كلّ ما سمعت. أراه الآن على إحدى محطّات التلفزة. أراه ملفوفاً بالأبيض، في المستشفى. أَتَستَقْطِبُه الحياة، أَمْ يَسْتَقْطِبُه الموت بكلّ هذه اللّفائف، والأجهزة؟ ما أن تنظر إليه بكلّ هذه اللفائف، وبهذا السكون المجاور للموت، حتى يتصاعد في أعماقكَ أمر يفتح باب الإنسانيّة. تصعقك الشفقة ويلفّك الحزن. تُرى إلى أين هو ذاهب بكلّ هذه اللفائف البيضاء؟ إلى الحياة؟ أَمْ إلى الموت؟

* * *

وتمرّ الأيام، وينقضي أسبوعان تقريباً. لم يأتِ الشّفاء، وجاء الموتُ... موت محمد بو عزيزي، ليصبح موته حديث كثير من الناس في مصر والدول العربية. وأما في تونس فكان لموته ضجّة كبيرة، أخذت منحى سياسياً.

مات بو عزيزي في الرابع من يناير من عام 2011. مات ميتة أسطوريّة... ميتة أَنْجبتْ ثورة. يموت هو وتولد ثورة في تونس. متى كان الموت يُنْجِب حياة؟ ومتى كان السكون يُنْجِب ثورة؟ هو انطفأت نيرانه

فمـات، فتشـتعل أرض تـونس رفضـاً واحتجاجـاً على البطالـة وسـوء الأوضاع السياسية والاجتماعية.

في أحد الأيام من أيام يناير، توجهّت إلى مدينة نصر كي أزور صديقي سامي. هو إمّا غارق في الاستعداد لامتحان ما، أو غارق في قراءة كتاب من كتب الفلسفة التي تسبّب الدوار. في شقّته سرير بسيط، وطاولة تنتشر عليها بعض الأوراق، والكتب، والدفاتر. ثلاثة كراسٍ من البلاستيك تحيط بالطاولة الخشبية. شقّته في الطابق الثالث من عمارة تتكوّن من تسعة طوابق.

رحّب بي سامي، وسألني عن سبب انقطاعي عنه، فأخبرته أنّني وجدتُ عملاً، وأنّني لم أجد متّسعاً من الوقت للالتقاء به.

قال عاتباً:

- وإن كنتَ وجدتَ عملاً ولم تجد وقتاً للقائي، فما الذي منعك من الاتصال بي؟

لم أدرِ ما أقول. ولم أرغب أن أقول شيئاً. لا تزال جمانة تسيطر على تفكيري، ولا يزال الخلاف مع والديّ قائماً بسبب رفضي للزّواج من ابنة أحد الأقارب. لا أريد أن أخوض في كلّ هذه التفاصيل.

قلت كمَن يعتذر:

- في هذه الحياة ما يُشْغِلكَ حتى عن شؤون نفسكَ.

ابتسم. يبدو أن كلماتي أقنعته بأسباب انشغالي عنه. بعد دقائق، أعدّ الشاي، وجلس قبالتي عند الطاولة.

قال وهو يقلب الكتب أمامه:

- استعدّ لعمل بحث طويل حول الفلسفة العدميّة.

قلت:

- دعنا من أبحاثك ومدارسك الفلسفيّة. لنتكلّم عن ما هو موجود. نحن موجودون...

قاطعني:

- لكننا سنؤول إلى العدم يوماً ما...

قاطعته:

- حدّثني عن شيء أفهمه، وليس عن شيء يسبّب لي الدوّار.

ضحك. ربّما كي يشير إليّ أنه لا يضايقه أن يخوض حديثاً أحدّد أنا اتّجاهاته. راح يشرب الشاي بصمت، ثم تحدّث عن ما يجري في تونس. ها هي أخبار تونس تطال نقاشاته.

قال:

- يموت الشاب التونسيّ، فتولد ثورة...

قاطعته:

- موته يثير الشفقة. أهو زمن غياب الرحمة؟

قال:

- يثير الشفقة ويثير التساؤل أيضاً. أَقَدَرُنا، نحن العرب، أن نموت كي تتحقق مطالبنا؟ وما أهميّة تحقيقها بعد موتنا؟ أبْعدْني عن كلّ هذا. الفلسفة أفضل.

بعد أن شربنا الشاي، تحدّث سامي عن أهله وأقاربه، وقال إنه اشتاق إليهم، ويتمنى أن يزورهم. هو يتحدّث إليهم على الهاتف والانترنت من وقت لآخر، لكنّه يرغب في أن يزورهم. هو يشتاق إلى أهله، وأما أنا فأشتاق إلى حبيبتي. لا أزال أشعر بدفء قُبْلَتِها. ومذاق شفتيْها يسري في شراييني. تفكيري يتوجّه نحو ذلك الجزء من قارّة آسيا، يرسم عودتها بألوان الشوق وريشة الحبّ. هي ستأتي في يناير أو في الأول من فبراير. قلبي يرقص مبتهجاً على مشارف عودتها.

عجبتُ لأمر سامي الذي يحبّ فتاة، ولا يرغب في أن يخبرها. هو يريدها أن تفهم بنفسها... أن تقرأ عبارات الحبّ في وجهه، أن تخترق

أعماقه. كيف يحتمل أَلَمَ الكبْت؟ لماذا لا يخبرها؟ لماذا لا يستوضح الأمر منها إذا كانت تحبّه أم لا؟

لم أتمالك أن سألته:

- حدّثتني عن الفتاة التي تدرس معك في الجامعة. لماذا لا تخبرها بحبك؟

لاذ بالصمت دقائق. ابتسم ابتسامة خفيفة. ثم قال ووجهه لا يزال مُشْرقاً بتلك الابتسامة:

- كنّا نتحدّث عن ثورة شعب، والآن سنتحدّث عن ثورة قلب.

ضحكتُ إعجاباً بكلامه، ثم قلت:

- جميلة هي ثورة القلوب... أَمْ للفلاسفة رأي آخر؟

قال:

- لست فيلسوفاً. أدرس الفلسفة وعلم النّفس، ولكني لستُ فيلسوفاً.

قلت:

- لماذا لا تخبرها؟ قد تشعر بالارتياح عندما تخبرها.

قال:

- ربّما لأنّي أعتقد أن الحُبّ يفقد الكثير من قوّته إذا هاجمه الكلام.

قاطعته:

- ليتني أفهمك.

كلامه لم يقنعني. ففي الكلام قوّة لا يمكننا إنكارها.

أردفتُ أقول:

- حتى وإن كانت قوّة المشاعر أقوى من قوّة الكلام، ففي الكلام طريقته في استيضاح الأمور.

أجاب:

- لا أنكر قوّة الكلام. فها نحن نتكلّم. ولو لم يكن الكلام بيننا، فماذا كنّا سنفعل؟

قلتُ:

- أَخبْرها إذاً.

قال:

- قد أفعل...

قاطعته:

- قُلْ سأفعل...

هزّ رأسه موافقاً. ثم قال مغيّراً مجرى الحديث:

- كيف تجد عملكَ؟

قلت بعد صمت قصير:

- ليس هذا العمل الذي كنت أحلم أن أقوم به، لكنّه هو المتوفّر في الوقت الحالي. كنتُ أرغب في أن أكمل تعليمي الجامعيّ. لكنّ الوضع المادي لم يكن يسمح. ميكانيكي أفضل من لا شيء.

قال سامي:

- يمكنكَ أن توفّر ما يلزم من المال كي تكمل تعليمك الجامعيّ. لا تعتبر أمر التعليم منتهياً بالنسبة إليك.

في كلامه شيء من المنطق، بل كلّ المنطق. يمكنني أن أكمل تعليمي. سأعمل وسأدّخر ما يلزم كي أحاول أن أكمل تعليمي. التعليم قبل الزواج. هذا الزواج الذي تصرّ عليه أمّي.

في وقت لاحق، غادرت شقّة سامي، متمنّياً له التوفيق في امتحاناته. عدت إلى المنزل.

الفصل السادس

تمضي الأيام، وتشتدّ الثورة في تونس، وتتّسع كي تمتدّ إلى أنحاء ذلك البلد العربيّ. وتَرِدُ أنباء عن هروب الرئيس التونسيّ ليلاً إلى السعودية في الرابع عشر من يناير. يموت شاب، يعمل كبائع متجوّل، ويرحل النظام الحاكم، وتدخل تونس في مرحلة جديدة. كلّ هذا في بضعة أيام.

وفي مصر، يَكْثُر الحديث بين الناس عن ما يجري في ذلك البلد العربيّ. أسمع هنا وهناك كلاماً عن الرغبة في التغيير في مصر.

في العشرين من يناير، زرت زوج أختي هاني. كان يتناول طعام العشاء عندما وصلت إلى منزله القريب من منزلنا. طلب منّي أن أتناول طعام العشاء، لكنّني لم أكن جائعاً في تلك اللّحظة.

جلستُ على إحدى الأرائك. عندما رأتني ابنة أختي، ملاك، تركتْ طعامها وتوجّهت نحوي كي تعانقني، ثم جلست في حجري. أحبّ مداعبة هذه الطفلة، وأشعر أن براءتها تقتل الكثير من همومي. معها أضحك. هي تعلّمني الضّحك... تعلّمني ببراءتها كيف أكون ابن اللّحظة فقط.

المدفأة الكهربائية أمامي تزيد من دفء اللحظة. وأما الطفلة فهي تمرّغ وجهها في وجهي، وتتصاعد أصوات ضحكاتها. والداها يرقبانها ويبتسمان. هذه الطفلة تنثر نفحات البهجة في المكان.

أنهى هاني طعامه، وأما أختي فراحت تزيل أطباق الطعام. الطفلة لا تزال في حضني. ترفض نداءات والدها بالجلوس في حجره. ولا تستجيب لابتسامته، كما لا تستجيب الحياة لابتساماتنا معظم الأحيان.

قال هاني الذي كان يجلس إلى جواري:

- لم نركَ منذ أسابيع. علمتُ أنك وجدْتَ عملاً.

ابتسمت، ثم قلتُ:

- وجدتُ عملاً، وهذا أفضل من لا شيء.

قال مازحاً مبتسماً:

- السيارات أفضل من الفتيات.

ضحكتُ، ثم قلتُ:

- تتشابه السيارات والفتيات أحياناً. سيارة يعجبكَ لونها، وسيّارة أخرى يعجبك شكلها، وثالثة تعجبكَ سرعتها وقوّتها وقدرتها على التحمّل... تماماً كالفتيات.

إرتفع صوت ضحكته، والطفلة تضحك متأثّرة بضحكاتنا. أمّها في المطبخ. الطفلة تضحك دون أن تفهم لماذا نضحك. أحسد هذه الطفلة على ضحكة انطلقتْ من فمها دون أن تدرك دوافعها.

قفزتِ الطفلة من حجري فجأة، وراحت تلاحق أخاها الذي يبلغ الثانية والنصف من عمره. وحدنا الآن أنا وهاني. هذا ما أردته. أن نكون وحدنا. شعرتُ برغبة في أن أخبره بما يعتلج في صدري. كان دائماً يفهمني، وأعتقد أنه سيفهمني الآن. أشعر أنّه أقرب الناس إليّ. أكثر من إخوتي وأخواتي. "هي ستأتي"، قلت في داخلي. ستأتي جمانة قريباً. ستقيم في مصر بضعة أيام وستغادر مرّة أخرى. لكنّي لا أريدها أن تذهب، فلا أحتمل الانتظار مرّة أخرى.

قلتُ:

- أتذكر الفتاة الشامّية التي حدّثتكَ عنها؟

هز رأسه موافقاً، ثم قال:

- أذكرها. أخبرتني أنها قد غادرت مصر منذ بضعة شهور.

قلت:

- ستعود... ستعود قريباً إلى مصر في الأول من فبراير، وربّما في نهاية الشهر الحالي...

قاطعني متعجّباً:

- ستعود؟!

قلت فرحاً:

- أجل ستعود.

سألني:

- وكيف عرفت؟

أجبتُ:

- هي أخبرتني.

سألني مرّة أخرى:

- وكيف أخبرتْكَ؟

قلتُ:

- أتحدّث إليها عبر الانترنت... وأحياناً أتحدّث إليها هاتفياً.

لاذ بالصّمت دقائق. كأنّه لا يصدّق ما يسمع، وربما يذهله هذا الركض العبثيّ خلف الأوهام في عالم الانترنت. فما معنى أن ترتبط بشخص على الانترنت؟ لكنّه مخطئ إذا كان هذا اعتقاده. أنا لا أرتبط

معها عبر الانترنت، ولم تكن الانترنت مَنْ أنْجَبَ علاقتنا. فقد رأيتها... وتحدّثتُ إليها... أمسكت بيديها... عانقتها. هي ليست جزءاً من ذلك العالم الافتراضي على الانترنت. هي ليست اسماً وصورة على الفيس بوك. هي حقيقية... هي حياة... موجودة... وستعود. ستعود بأحلام مورقة، وأمنيات تكسوها الأزهار. سأنتظرها... سأنتظر الأحلام المورقة، والأمنيات المزهرة كي تغلّف جسداً تَعرّتْ أغصانه.

قال بعد صمت، وبصوت هادئ:

– لا أفهم أبداً كيف تتعلّق بفتاة تفصلك عنها الجبال والمدن والبحر؟ إنك تُشْقي نفسك بهذا.

قلت:

– قلت لك إنها ستعود. هي ليست خيالاً.

قال:

– أعرف أنّها ليست خيالاً، ولكنّها لن تقيم في مصر سوى بضعة أيام. يبدو أنّك تعمل كي تنفق على محادثاتك معها عبر الانترنت والاتصالات الدوليّة.

لذتُ بالصّمت ثوانٍ، والحزن يسري في داخلي. كان لكلام هاني تأثير عميق في أعماقي. ما هذا الحبّ البعيد القريب؟ ما هذا الحبّ الذي

يحلّق في السماء كالطيور؟ يحلّق... يحلّق عالياً، لا تطاله الأيدي، ولكنْ تطاله الأحلام الشاهقة، والأماني المرتفعة. أخذت نفساً عميقاً، وعدت أقول في أعماقي: "لكنها ستعود، وسيهبط الحبّ المحلّق في السماء، مفترشاً جسدي. هي ستعود... سأراها. هذا ما يهمّني الآن. أمر عودتها هو الذي يهمّني. ولماذا أفكّر فيما سيكون؟ فَلْنَمْتلك ما تهبنا السماء من لحظات مفخّخة بالأحلام الجميلة. هي أيام قليلة وسأرتمي على صدر الأحلام، وهمسات الحبّ. استَنْشقتُ هواء الحب البعيد، واخترق رئتيّ نسيمُ قرب عودتها.

قلت:

– أنت لا تدري كم أشعر بالسعادة وأنا معها. هي ستعود وسأكون في أجمل لحظات حياتي.

ردّ قائلاً، كأنّه لا يريدني أن أحلّق عالياً في سماء الأحلام:

– سَتَسْعد لمدة لحظات أو أيّام، ثم ماذا؟

قلت:

– لا تطوّقْني بالحزن. أرى الغد جميلاً.

يبدو أنّه لم يرغب أن يُثْقل عليّ بالأحزان، فقال مبتسماً:

- عِشْ حياتك. ولكن يجب أن تفكّر الآن في نهاية قد لا تَسُرّ.

أخذتُ نفساً عميقاً. لن أفكّر فيما لا يَسُرّ. سأفكّر في عودتها. عودتها هي التي تَسُرّ. فلماذا أفكّر فيما يصعقني بالحزن الآن؟ هكذا قرّرتُ. سأفكر في الغد الذي يَنْضَح بالسعادة... البهجة التي ترتديها عودتها.

بعد دقائق، قدّمت أختي لنا الشّاي. سألتني أختي عن عملي، فأخبرتها أنه مُتْعِب، وأنه أفضل من لا شيء. هي كأمّي، تريديني أن أعمل كي أتزوج وأُنْجب أطفالاً. لكنّ الزواج لا يثير اهتمامي في هذا الوقت. في وقت لاحق، تحدّثت أنا وهاني عن السيّارات. هو يرغب في أن يشتري سيارة، لكن أوضاعه المادية لا تسمح بشراء سيارة. يحلم هو بسيارة، وأما أنا غارق في الأحلام الشاهقة حبّاً. رحنا نتحدّث عن أنواع السيّارات وأسعارها.

أخذت نفساً عميقاً، وشربتُ ما تبقّى من الشاي. الجو بارد، لكن الأحلام دافئة... أحلام عودتها. غادرتُ منزل أختي في وقت لاحق، عائداً إلى البيت.

* * *

بضعة أيام تمرّ... وأوقاتي يتقاسمها العمل والبيت... والانتظار... انتظارها هي. انتظارها في الثامن والعشرين من يناير كما

أخبرتني على الهاتف. الثامن والعشرين من يناير وليس الأوّل من فبراير كما قالت لي ذات مرّة على الهاتف. معنى ذلك أربعة أيّام، إذا حذفتُ اليوم من قائمة الانتظار. آه... آه... أربعة أيّام وتكون هنا... في القاهرة... بين ذراعيّ... في دفء مصر الأسطوري. تتقاذفني أفراح عودتها، وتتطلام أمواج السعادة والنشوة في أعماقي. السعادة في أن أراها، حقيقة ملموسة محسوسة. والنشوة في أن أرتشف ما شئتُ من نبيذ شفتيْها. واستنشق من عبق جسدها ما يَلْزمني كيْ أحيا.

عصر ذلك اليوم أنهيْت عملي. وعلى غير عادتي، لم أكن أشعر بالجوع في ذلك الوقت، وبعد ساعات عمل طويلة. تناولت الطعام أنا ويسري في مكان عملي صباح ذلك اليوم، ربّما هذا ما جعلني لا أرغب في تناول الطعام بعد العمل. لم أرغب في العودة إلى البيت. في البيت قَيْد، لا بل قيود. قيود أسئلة أمّي، وإصرارها على الارتباط بتلك الفتاة التي اختارتها هي. الآن أنا أعمل، وأمّي تعتقد أنّه لا يوجد أسباب مقنعة لعدم الزّواج. أسئلة أمّي، ونقاشات أُسَريّة كثيرة لا أرغب في الاستماع إليها. شعرتُ برغبة في أن أتجوّل في مساحة واسعة من الحريّة... حريّة التّفكير... وحريّة الحديث. أريد أن أقول ما أريد، وأتحدّث مع مَنْ أريد. قادتني قدماي إلى شقة سامي. "هو الآن في شقّته، بين كتبه، وقد يكون غارقاً في بحر مشاعره وهيامه لهذه الفتاة التي حدّثني عنها، ولا يجرؤ أن يخبرها عن حبّه لها. لا أدري لماذا يُخْفي مشاعره."

البلد تتقاذفها اتجاهات راغبة في التغيير. والحديث عن ما جرى في تونس والثورة التي انتهت بهروب الرئيس التونسي، زين العابدين بن علي، ورحيل النظام الحاكم، يتصاعد وينتشر في مصر.

أمشي في طريقي باتجاه شقّة سامي، والأفكار في رأسي تتدافع. أفكار مترامية الأطراف كما الصحراء... شديدة الصراع كما المعارك. مصر... مصر العظيمة. إلى أين تسير مصر؟

عندما وصلتُ شقّة سامي، لم يكن بين كتبه، ولم يكن غارقاً في غرامه كما توقعتُ. كان يتحدّث مع أهله وأقاربه في رام الله عبر الإنترنت. هو يبحث عن كلام أهله في الإنترنت، وأمّا أنا فهارب من كلام أهلي. تُرى لماذا؟ ألأنّ أهله بعيدون عنه، وأهلي قريبون منّي؟ يبدو أنّ بعض الناس يصبح أجمل وأقرب إلى القلب بالغياب. أيعقل هذا؟! أيمكن للغياب أن يُنْجِبَ القُرب؟! ربّما الأمر كذلك. فما تفسير شدّة لوعتي ولهفتي واشتياقي المتصاعد لجمانة في غيابها؟

بدا سامي سعيداً. يبدو بسبب ما وصله من أهله على الإنترنت. أمّا أنا فقد كنت أشعر بالضيق. غارق في أحلام أشعر أنّه قدْ حانَ قطافها. أحلم بعودتها... أحلم بسيارة فخمة بعد حصولي على رخصة السواقة، وأحلم بتعليم جامعيّ، وأحلم ببيت جميل. أحلام شاسعة غَنيّة المساحات، فقيرة الوقت.

قلت مازحاً:

- تطارد الفتيات على النت؟

ضحك سامي، ثم ردّ مبتسماً:

- بعض ما عندك...

قاطعته متباهياً:

- لا أطارد الفتيات. هنّ يَفْعلْن ذلك.

لذتُ بالصمت دقائق، ورحتُ أردّد في أعماقي: "هُنّ يَفْعلْن ذلك إلاّ واحدة... روحي تطاردها... أعماقي تناديها، كياني كلّه يهتزّ بكهرباء حضورها. حضورها زلزال أعضاء، وغيابها بركان رغبة، وإعصار أشواق. ولا أدري أيّهما يطغى على الآخر عشقاً ورغبة، حضورها أَمْ غيابها؟

لم أرغب في الدخول مع سامي في نقاشاته الفلسفية التي لا أفهم منها شيئاً أحياناً، ولا أحبّها دائماً. ولم أجد ما يبرّر أن أتحدّث إليه عن جمانة. فهي ستأتي بعد أربعة أيّام. فماذا أقول له؟ هناك الكثير من المواضيع التي تطرق باب النقاش والحوار، لكنّني لا أدري لماذا ألتزم الصمت الآن. جئت إليه كي أتحدّث... أتحدّث بحريّة، ولكنّي أجد نفسي قد فقدتُ رغبتي في الكلام فجأة. ما الذي يجري؟ كأنني أخلع عباءة نفسي.

سألني فجأة:

- كيف عملك؟

عملي ليس الموضوع الذي أرغب في الحديث عنه. ما جئت إليه كي أتحدّث عن خلل السيارات، وقطع الغيار، وفظاظة بعض الزبائن، وتذمّر بعضهم.

بالرغم من أنّني لم أرغب في الحديث عن عملي، لكنّني أجبتُ:

- عملي جيد، ولكنّي أحلم بما هو أكثر من مكان لتصليح السيارات.

قال سامي:

- أنت شاب في مقتبل العمر، وأمامك الكثير يمكنك تحقيقه...

قاطعته متسائلاً:

- أتعتقد أنّ الحياة تتّسع لأحلامنا وطموحاتنا؟

أجاب:

- لا... معظم الأحيان لا. ولكن هذا لا يبرّر اليأس.

غرقت في الصّمت. إذا كان الجواب بالنّفي، فمن أين سيأتي التفاؤل؟ لم أدرِ. يُثير الحزن والسخرية في آن واحد أن لا تَتّسع الحياة...

كلّ الحياة، بكلّ مساحاتها الواسعة لأحلامنا الصغيرة أحياناً. شعرتُ بالبرد قليلاً. لا يوجد في الشقّة تدفئة. بعد دقائق قدّم سامي لي فنجاناً من الشاي. الشاي السّاخن في هذا الجو البارد يزوّد الجسم بشيء من الحرارة.

بينما كنتُ أشرب الشاي، حمل كتاباً، ثم راح يقلب صفحاته.

سألته:

- ما هذا؟

أجاب ضاحكاً:

- ألا ترى؟ إنه كتاب...

قلت مبتسماً:

- أعلم أنه كتاب وليس قلماً. ولكن ما موضوعه؟

قال:

- موضوعه لن يعجبك بالتأكيد. أنت كاره للفلسفة، أليس كذلك؟

أخذتُ نفساً عميقاً، ثم قلتُ:

- المسألة ليست كرهاً، ولكن أرى أن الفلاسفة مثاليّون جداً، ولا أجد أن نظريّاتهم وأفكارهم يمكن أن يجسّدها الواقع.

أجاب:

- هذا ليس صحيحاً، أو لِنَقُلْ أنّه ليس صحيحاً في كل الأحوال. هناك من الأفكار الفلسفيّة واقعيّة جداً. قال أفلاطون: "نحن مجانين إذا لم نستطع أن نفكّر، ومتعصّبون إذا لم نرد أن نفكّر، وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكّر."

قلتُ:

- وماذا قال أيضاً عن الحبّ؟

ضحك بصوت عالٍ. ثم ضحكتُ.

قال سامي:

- قال الكثير. فالفلاسفة لم يتركوا أمراً لم يتناولوه تقريباً. خاضوا في معظم الأمور...

قاطعته:

- معنى ذلك أنّ له رأياً في الحب.

أجاب سامي:

- بالتأكيد.

سألت:

- ماذا قال؟

أجاب:

- أفلاطون قال: "كل إنسان يصبح شاعراً إذا لامس قلبه الحبّ."

أعجبني ذلك القول، واستقرّ في عقلي. أيمكن أن أترك عملي في السيّارات، وأصبح شاعراً لأنني أُحِبّ؟ تساءلت في أعماقي.

قال سامي مؤيداً قول أفلاطون:

- ستصبح شاعراً إذا كنت تحبّ...

قاطعته مبتسماً:

- أيمكن أن يحدث ذلك، ولم أكمل تعليمي الجامعي؟

قال:

- لا علاقة للشِّعر والكتابة بالتعليم الجامعي. القراءة فقط هي التي تُنْتج الشِّعر والكتابة. مثلاً، العقاد لم يحصل على شهادة جامعيّة، وهو من روّاد الأدب العربي، وأسلوبه في الكتابة معقّد جداً. وفدوى طوقان،

الشـاعرة الفلسـطينية، لـم تحصـل على تعلـيم جـامعيّ، لكنّهـا أثبتـت وجودها في الأدب الفلسطيني والعربي.

رحـتُ أهـيم في عـالم الخيـال، وأتصـوّر نفسـي شـاعراً، يكتـب القصـائد، ويؤلـف دواويـن الشِّـعر. وتتـداول النـاس أفكـاري وقصـائدي. أيمكن للحـبّ والعشـق أن يصـنعا مـن الفـرد شـاعراً كمـا قـال أفلاطـون؟ لـم أكـن أحـبّ الشِّـعر في السـابق. أيمكـن أن أحـبّ الشِّـعر الآن، وأمتهن تأليف القصائد؟

سألت:

– هل ترى علاقة بين الشِّعر والحُبّ؟

أجاب سامي واضعاً الكتاب على الطاولة التي كانت بجانبه:

– العلاقـة قوّيـة بينهمـا. تكـاد لا تجـد شـاعراً في هـذا العـالم لـم يعذّبه العشق.

لـذتُ بالصـمت دقـائق. أفكّـر في جمانـة، وأنتظرهـا، فهـل سـتفجّر الشِّعر في أعماقي؟

أردف سامي يقول:

- لكن من أجمل وأرقّ ما كُتِبَ في الحُبّ، هو ما كتبه شعراء مصريّون. قرأتُ قصيدتين لشاعر مصريّ اسمه أحمد زرزور، في إحدى المجلات الأدبية. أحمد زرزور شاعر مصريّ معروف.

أذكر أنّني رأيت أحد دواوين الشاعر المصري أحمد زرزور في وقت سابق مع سامي. تُرى ماذا كتب هذا الشاعر في الحُبّ؟

سألت سامي:

- أيمكنني أن أقرأ قصائد هذا الشاعر؟

قفز سامي من مكانه، وأحضر مجلّة كانت على رفّ خشبيّ إلى جانب مجموعة من الكتب. أخذت المجلة منه ونظرت إلى النصّ.

قرأت بصمت:

- حدث في ظهيرة 2 تموز.

أحمد زرزور

"لن تصدّقيني،

فما انصهر به لقاؤنا الأول لم يخطر على بال النّيل ذاته،

النّيل الذي يواصل انسيابه المتعاطف، على مَقْربة منّا،

النّيـل الـذي لا يـزال محتفظـاً في أغـواره البعيـدة، بـدموع عاشـقين، وعاشقات، دموع بدايات ونهايات،

أنا بلّلني رذاذه وهو يباركنا،

ألم يوقظ فيكِ، لحظتها، يفاعات كادت تُطْمر؟

ألم ترتعشي فجأة؟

وفي المواقف والمخاطبات الجديدة التي غمرتنا.

ألمْ تري "ابن عربي" مصريّاً، نحيلاً، وحنطياً،

يُداري عنكِ رعدة الحمّى السعيدة؟

أَلَمْ تلاحظي إنصاته لروحكِ، وهي تردّد بشرود سكران:

آمين، آمين،

هذا صحيح،

نعم صحيح.

ألم يدهشكِ، حينها، برق أهدابكِ المختلف؟

برقكِ العائد من صبا ما قبل أحمد،

إلى صبا ما بعد أحمد؟

هل كنتِ تتركينه يمضي وحيداً، وشجيّاً،

لو هتف في بهو الفندق:

حقّاً، نحن رجل وامرأة حقيقيّان،

أنا من ضلعها،

وهي أيضاً،

كلانا أنجب الآخر،

ألمسي يدي الآن، رجاء.

أَلَمْ تتساءلي وأنت تتأمّلين جنوني؟

كيف لم أدخل به القاهرة من قبل؟

وهل أتحمّل كلّ هذا دفعة واحدة؟

وأنا تساءلت:

ألا أريد الآن احتضان ملكة شامّية؟

أأستطيع مواصلة التحديق فيها، بعد كل ما أشعلته بي؟

ولمن أقول هذا الآن؟

لله،

أَمَ لها،

أَمَ لي؟

الجنـون يتعـاظم، ولا قِبَـل لنـا بممارسـته أمـام النـزلاء، وإذ، بغتـة، تسـأليني: "هـل عَلِقْـتَ بفراشـة هكـذا مـن قبـل؟ مـا رأيـكِ، أنـا، أم افتراضيّون: أكثر تحليقاً حولكِ؟

عندها،

أُمْسِكُ يمناك لتسمع التهدّج الذي يلونّني ويخرسني، هل اعترف الآن؟

حمدت الله أنك لم تسأليني:

ما لون

عينيّ؟"

قاطعني سامي قائلاً:

- يكفي الآن. ستقرأ النص كاملاً في وقت آخر.

قلت حالماً:

- لا أستطيع أن أتوقّف. النصّ رائع. أشعر أنه يكتبني.. إهدأ قليلاً، ودعني أكمل.

لم استجب لطلب سامي بالتوقّف. كنت مأخوذاً بنص أدبيّ في منتهى الروعة. نصّ يشبهني ويخترقني حتى أعماق الأعماق.

تابعت القراءة صامتاً:

"حينها، كنت سأهذي بيقين درويش، يرى العبارة والرؤيا يتماوجان في رقصة أوقفتِ الكوْنَ برهة،

نعم، كنت سأقول:

"سيأتيني لونهما، كالربيع،

من كلّ صوب يأتي،

لا يعرف الجدار،

ولا الأسلاك الشائكة،

سيأتي،

ولا يكلّ من البحث والتجوال."

قاطعني سامي مرة أخرى قائلاً:

- يكفيك الآن. خذ المجلة معك وستقرأها في البيت. تحدّث معي.

سرّني أنّني سآخذ المجلة معي. فقد أحببت النص كثيراً. ما أروع هذا الشاعر المصري! الله... الله عليك يا أحمد زرزور ما أروعك، وما أجمل ما كتبتَ!

قلت:

- نص في منتهى الجمال. "ملكة شامية". كأنّ الشاعر يكتبني. سأكمل قراءة النص في البيت.

قال سامي:

- قلب مصر يَنْضَحُ بالجمال والدفء.

ابتسمتُ. أعجبني كلامه. شربنا الشاي، وخيّم الظلام في الخارج. غادرت شقة سامي، حاملاً معي المجلة. الساعة الآن الثامنة وعشر دقائق تقريباً. لا أدري أين أذهب. أأعود إلى البيت، أم أبقى في الشوارع ألاحق الذكريات هنا وهناك؟ ألاحق ذكريات الحُبّ على كوبري قصر النّيل؟ أم في ميدان التحرير؟ أم في شارع طلعت حرب؟

شعرت فجأة برغبة في الحديث معها. سأتحدّث إليها عبر الإنترنت. غابت أخبارها عنّي. لا أحتمل لحظات الصّمت الممتدّة في غيابها. توجهتُ إلى أحد مقاهي النّت في القاهرة، مدفوعاً برغبة الحديث معها، ومعرفة

أخبارها وهي على وشك المجيء إلى القاهرة. بعد أربعة أيام ستكون في القاهرة. رحيق أزهارها في أجواء القاهرة. ستجتاح أنوثتُها ورقتُها أعماقي. سأعانقها... سأعانق سحرها... أنوثتها... رقّتها... جمالها... إغراءها.

يا الله...

أي عناق هذا؟!

أي عناق سيتّسع لكل تفاصيلها؟!

ما أصغر عناقي!

وما أعظم وأكثر تفاصيلها!

أيّها النّيل...

ها هي قادمة...

فَلْتبارك لحظاتنا معاً أيّها النّيل...

ولْتخطّ كلمات حبّنا على صفحة مياهك الخالدة...

هي تحبكَ...

وتعشق الدفء المصريّ فيكَ...

تعشق قصص العشّاق في أعماقكَ...

فَلْتَغْمرنا مياهُك الآن عشقاً،

فنحن هواة الفيضانات حبّاً...

وصلتُ المقهى. قمت بتسجيل الدخول... الدخول إلى عالمها... إلى الشام... إلى حلب. كانت في وضع اتّصال. ما أروعها! وما أجمل حظّي! كأنّها تنتظرني كما أنتظرها... كأنّها تطارد ذكرياتي كما أطارد ذكرياتها... كأنّها تختلس لحظات الالتقاء كما أختلس لحظات نداء الروحيْن. ها هي دقّات قلبي تَعبُر القارّتيْن كي توقظها من سبات الغياب والانقطاع.

ها هي أمامي...

بروحها...

بذكرياتها المنقوشة في قلب القاهرة...

بقطرات عشقها التي امتزجت بمياه النّيل...

تحدّثتُ إليها عبر الانترنت، وأخبرتها أنّني أنتظرها، وأمّ المدن، القاهرة، تنتظرها. أسعدها كلامي، وقالت إنّها تتلهّف للعودة إلى القاهرة، وإنّ الأمر مسألة أيام. هي تقوم بترتيبات السّفر كي تعود. رحتُ أرسم بريشة خيالي أجمل اللّوحات الغراميّة، وأكثرها ثورة وتمرّداً على

المألوف. فلوحة أقبّلها فيها بألوان اللّذة والمتعة، ولوحة أخرى أضمّها فيها إلى صدري بألوان صارخة بالدفء والانفعال، ولوحة ثالثة أراوغ فيها جمالها بألوان الإصرار.

هل أصبحتُ ذلك الفنّان، أو ذلك الشاعر الذي تحدّث عنه سامي في قول أفلاطون: "كلّ إنسان يستطيع أن يصبح شاعراً إذا لامس الحبّ قلبه"؟ لا أدري مَنْ أنا بالتحديد الآن. رسّام؟ شاعر؟ ميكانيكيّ؟ فيلسوف؟ لا أدري. كلّ ما أعلمه أنني ابن النّيل... ابن مصر العظيمة.

هي الآن أمامي... تغيب صورتها، وتحضر روحها حضوراً طاغياً. أحدّثها بتلك الطريقة الميّتة على "النت"، فليس لديّ وسيلة أخرى. أخبرتها أنّني أعدّ الثواني والدقائق والساعات والأيام إلى إن تكون بين ذراعيّ. يا لها من عمليّة حسابيّة معقّدة. الثواني والدقائق والساعات والأيام. هل تَحْسِب هي كما أَحْسِبُ أنا؟ هل يحسب العالم كما أحْسِبُ؟ هل تختزن ذاكرة النّيل الثواني والدقائق والساعات والأيام كما تختزنها ذاكرتي؟

رنّ هاتفي المحمول فجأة. نظرت إلى الرقم على الشاشة. رقم أتى من وراء البحار... عَبَر القارّات والمحيطات كي يستقرّ هنا في القاهرة... في هذا المقهى. رقم صديقتي الكورية. ابتسمتُ عندما رأيت الرقم يتراقص لهفة على الردّ... ردّي أنا. لكنّني لم أضغط على زرّ الاستقبال، فلم تكن لديّ رغبة في الردّ. أسعدني أن أرى الرّقم. معنى ذلك أن

بصماتي على جسدها، وتأثيراتي في أعماقها لم تندثرا. كأيّ شاب، أسعدني شغفها بي. رنّ الهاتف مرّة أخرى. فرسم إصرارُها على الاتّصال ابتسامة أخرى على وجهي.

كيف أردّ على اتّصالها وأنا في حضرة هذا الجمال الذي يبرق أمامي، وإنْ كنتُ لا أراه؟ إنه في مخيّلتي... في ذاكرتي... في أعماقي. أنا الذي كنتُ دائماً قَلَماً جريئاً على صفحات أجساد النساء والفتيات، أجد نفسي قد اعتزلت الكتابة على أجساد النساء، كأنّ الحبر جَفّ. وأمّا صفحات إغرائهنّ فقد طُمِرَتْ.

عدتُ أتحدّث مع جمانة. أخبرتها أنّني سأكون في مطار القاهرة الدوليّ، كي أستقبلها. فأنا الآن لديّ عمل. سألتني هي عن الأوضاع في مصر، فأخبرتها أن الأوضاع هادئة.

في وقت لاحق، غادرتُ مقهى "النت" حاملاً معي المجلّة الأدبيّة التي أخذتها من سامي. غادرت المكان هائماً بما سيكون. "ما أجمل ما سيكون!" قلت في أعماقي وأنا أتخيّلها. أقرأ ما ستكتبه الأيام القادمة على صفحات الغرام. عدتُ إلى البيت. أمّي كعادتها، تنتظرني بقلق. كنت جائعاً. كأنّ حديثي معها على الإنترنت أثار شهيّتي للطعام، وفتح باب شهيتي للحياة. أمّي لم تعد توبّخني كما كانت تفعل في السابق، ربّما لأنني حصلت على عمل، وأساهم في زيادة الدّخل. لكنّها لا تتوقّف عن التذمّر بسبب تأخّري خارج البيت، بحجّة أن تأخّري يثير قلقها ومخاوفها.

أخبرتها بطريقة هادئة أنّني شاب ويجب أن تكون لي الحريّة في أن أذهب أينما أشاء، وأتحدّث مع مَنْ أريد، وأنها تبالغ في مخاوفها وقلقها عليّ. لا يعجبها كلامي، لكنّها تصمت، ليكون والدي من ينوب عنها في الحديث معي في اليوم التالي. دورة لا متناهية من التوبيخات والاستياء.

تناولت الطعام الذي أعدته أمي لي. ثم توجّهت نحو حجرتي. المجلّة في يدي. ارغب أن أكمل ذلك النّص الذي كتبه الشاعر المصري أحمد زرزور.

جلستُ في سريري، ورحت أقرأ من حيث انتهيْتُ:

"نعم، في حضرتكِ، ما كان لديّ غير هذيان،

كم دقيقة شهدتْ ارتباكي أم سيمفونية خصلاتكِ؟

هل كانت البرهات سريعة العدْو تكفي، لتأمّل شفتيكِ؟

أهما مستديرتان؟

أم حالمتان؟

كيف لم انتبه لحركة الروح؟

كيف غفلتُ عن رضاب المخيّلة، الهاطل من أنوثة عينيكِ؟

ألا أزال أزهو بحفاوتي ب: الخيام،

الخيام شارب الحسان في ليالي "ينسابور"؟

هل جئتِ من رباعيّاته؟

لأهتف ضد لقائنا الأول: "إنكِ هي، لستِ افتراضية أبداً، أعرفها هذه المرأة: وجهها فارسيّ،

بيضاء،

وكأسطورة، ها هي تتدحرج طوال الوقت على موسيقى،

أجل،

ألا تتدحرج الأساطير؟

كيف

إذن

تصل

إلينا؟"

نعم، لقد وصلتِ أخيراً،

يا الله، حتى حجمكِ الدقيق،

وأغنيات مشيتك،

وصوتكِ المخمور بالعشق،

أووووه: من عمر قلبي عمرها،

إنها قريني،

لم يمرّ يوم بها، دون قصيدة،

أجل، أتعرفين ما الذي قاله البهو المسحور بفخر لم يَعْتَدْه:

ثَمْلى،

هي،

الآن،

مصر،

كلّها.

لا تستغربي، كلّ شيء تمّ من وراء ظهريْنا،

اتّفق القرينان،

وفي الخرافة العائدة قذفا بنا،

نحن الآن محتلاّن،

لا منطق لدينا،

ألِلزّهور منطق: لتحمرّ، وتصفرّ، وتعطّر؟

وهل لذروة جسديْن؟

وهل أَوْقَفَ التاريخ جنوناً كهذا؟

هكذا: تلمّستُ يديكِ،

وهكذا ستدهشك الأغنية،

وقد يلفّ بك دوار،

نعم، "أتلمّسكِ وأفهم العالم،

أفكّر بك، وأتحسّس الزمن،

أحبّ وأُمْطِر وأسطع،

أنا السّماء،

أنا النّجوم،

والأرض.

لكن، لماذا، إذن، نبّهتِني

إلى

أدنى

اكتفاء

في يناير؟

أيصلح هذا الجنون؟

أيليق بشاعريْن هاتكيْن؟

’المطيعون متوفّرون‘

ولو لم يجدوا سلطات، لصلّوا استسقاء لها،

وهل غير تياراته المضادة ما يترع النّهر؟

هل يكتب السكون نصّاً،

لماذا، إذن، تتنهّد غزالة؟

أليس لأنّها: صارت "حليم الرومي"؟

هل يجدر بعاشقيْن أن يطفئا بهاء رجفة؟

ما هي القداسة إذن، إن لم يرتعش لها اثنان يتأهّبان لسدرتهما؟

أيصلح نبيذ لا يقيم الدنيا؟

اعبري رعبك يا سيّدة المعرفة، مثلكِ يُنْصاع لها، كل المفاتيح معكِ، والأبواب جميعاً، عن رجاء، لا تكف. أطلقي سراح شعرائها من برج الحوت،

وانتظري،

الملاحم

وها أنا مجنون وسكران،

ها أنا "مرتجف القلب والعيون،

وكأنّي أسرع نحو عالم آخر،

إنّها الشفرة: لا تجرحي وجهي غفلة،

أيتها الرّيح، لا تشوّشي صفاء شعري ليلة،

وأنت أيها القلب. يا أيّها النشوان من دون نبيذ:

لا تسكب

ماء وجهي."

أخذتُ نفساً عميقاً، ورحتُ أهيم في فضاء الكلمات العذبة في هذا النّص الرائع. أشعر أنني بين سطوره، وفي أحشاء حروفه وكلماته. أهو يكتبني دون أن يدري؟ أم يكتب نفسه؟ لا أدري. أردّد كلمات النّص بنشوة مخمور. غلّفَتْني النشوة والنعاس معاً، ونمتُ معانقاً كلمات الشاعر أحمد زرزور، ومعانقاً روح جمانة، أُنثاي الشامّية. ما أروع النّوم عندما يمتزج بالشِّعر والحبّ في آن واحد!

الفصل السابع

عصر اليوم التالي عدتُ من عملي. عدتُ متعباً، لكنّني سعيد بما سيكون من راحة وسعادة بعودتها إلى القاهرة بعد ثلاثة أيّام.

كنتُ قد سمعتُ في وقت سابق من ذلك النّهار عن مظاهرات في شوارع القاهرة مطالبة بالإصلاح السياسي، ومحاربة الفساد، ثم الرغبة في التغيير. كغيري من الناس، اعتقدتُ أنّ هذه المظاهرات تجوب الشوارع لساعات، ثم تستقطبها دائرة الهدوء والسكون.

القنوات الإعلامية تتحدّث عن دائرة المظاهرات التي راحت تتّسع شيئاً فشيئاً، كي تمتدّ إلى مدن مصريّة أخرى، كالإسكندرية، وبورسعيد، والسويس، والصعيد. في السابق كان يتمّ تفريق المظاهرات خلال ساعات. أمّا مظاهرات اليوم التي اتّسمت بالاتّساع والإصرار أُطلِق عليها، "ثورة 25 يناير."

هي ثورة إذا، كالثورة التونسيّة. عبر قنوات الإعلام، أرى أنا وأفراد عائلتي المتظاهرين والمحتجّين مجتمعين في ميدان التحرير. ميدان التحرير الذي كان منذ وقت قريب ملتقى للعشّاق، ومكاناً للمتنزّهين والسائحين، أصبح الآن رمز ثورة... مكان احتجاج... قاعدة للتّغيير.

أنتقل من محطّة إعلاميّة إلى أخرى. أصوات المتظاهرين تتعالى عبر القنوات الإعلاميّة. أنا وأفراد أسرتي نرى احتجاجات واشتباكات مع قوّات الأمن... تقع إصابات... يسيل الدّم المصريّ الطاهر... يستشهد الشّهداء. ما أشدّ حزني!

الشّهيد... ما معنى الشّهيد؟ الشهيد هو الذي يتنازل عن أغلى ما لديه وهو حياته في سبيل الله، ومن أجل وطن انطلق من أحشائه، ومن أجل الآخرين. آه... آه الشّهيد. للشّهيد تنحني الأرواح احتراماً وتقديراً.

أردتُ أن أخرج من البيت تلك الليلة، كي أعلم ما يجري في شوارع مصر، لكنّ أمّي وقفتْ لي بالمرصاد. هي لا تريدني أن أخرج، ووالدي أصرّ على بقائي في البيت.

لم يعد ميدان التّحرير المكان الذي يسهل الوصول إليه كما كان قبل وقت قريب. أصبح ساحة اعتصام، وساحة مواجهة، ويجب أن تحسب ألف حساب قبل التّوجه إليه. أريد أن أذهب، لكنّ أمّي لا تأذن لي. وفي نهاية الأمر أُذْعِن لرغبة أمّي. لم يكن في نيّتي أن أثير غضبها أو قلقها. تقلق عليّ كأنّني أنا ابنها الوحيد. أشاهد وأفراد أسرتي الأخبار. ونتابع ما يجري في مصر، ونتساءل: "إلى أين تسير مصر؟"

رحتُ أطلب أصدقائي هاتفيّاً. بعضهم كان مع المعتصمين والمتظاهرين في ميدان التحرير، والبعض الآخر في بيوتهم يتابعون ما يجري في البلد.

في وقت لاحق من تلك الليلة نِمتُ بضع ساعات، بعد إصرار أمّي على عدم الخروج.

* * *

صباح اليوم التالي فتحتُ عينيّ مستقبلاً يوماً جديداً. أأنا أستقبل يوماً جديداً في حياتي؟ أم أن يوماً جديداً يشدّني نحو ثنايا أسراره؟ لم أدرِ.

أسمع جلبة في الحجرة المجاورة، صوت والدتي، وصوت والدي، وأصوات أخوتي. لم تكن تلك الأصوات تشير إلى شجار ما. هي أصوات متداخلة. لم أفهم منها شيئاً.

جفناي متثاقلان، بسبب قلّة النوم. فبضع ساعات من النّوم لا يمكنها أن تجرّد جسداً أثقله التعب والتفكير. التعب في عملي، والتفكير فيما يحدث في البلد، وما سيحدث.

فَركْتُ جفنيّ، ونهضتُ من سريري. لا أزال أسمع الأصوات في الحجرة المجاورة. أصوات أحاديث متداخلة في بعضها كأغصان

الأشجار. لا يمكنُ أن تفهم شيئاً من أحاديث متداخلة في بعضها تماماً، كما لا يمكنك أن ترى بوضوح بدايات ونهايات أغصان الأشجار المتشابكة في بعضها.

غادرتُ حجرتي. في الحجرة المجاورة أفراد أسرتي يتحدّثون عن ما يجري في البلد من مظاهرات واحتجاجات التي تزداد حدّة. تناولتُ فطوري، وعندما غادرتُ المنزل متوجّهاً إلى عملي، طلبتْ مني أمي أن أعود إلى البيت فور الانتهاء من العمل بسبب ما يجري في الشوارع المصرية. حتى أنّها لم تستطب أن أذهب إلى العمل من شدّة قلقها عليّ. آثرتُ أن أذهب إلى عملي، فذهبتُ.

في الشوارع أرى الناس يتحدّثون عن ما يجري في مصر، وفي ميدان التحرير بالتحديد. أسمع أراء متضاربة هنا وهناك حول ما يجري. فالبعض مؤيّد لما يجري، والبعض الآخر معارض. المؤيّدون للثورة يقولون أنّهم يريدون عهداً جديداً، ويطالبون بإسقاط النظام الحاكم، ورحيل مبارك. والمعارضون للثورة يقولون إنّ هذه المظاهرات والاعتصامات في الشوارع المصرية تقود إلى تخريب البلد. وبين هؤلاء وهؤلاء فهناك مَنْ لا يدري ماذا يقول.

أنا الآن في عملي. يُسري يقوم بتصليح إحدى السيارات. يداي ترتعشان من البرد. فركتُ يديّ كي يعود الدفء إليهما. هو يعمل، وأنا

أرتعش، ومصر يؤلمها أن يسيل دم أبنائها الطاهر... دم الشّهداء. يتحدّث يسري معي عن الأوضاع في البلد، وفي أعماقي أدعو أن يحفظ الله مصر.

قضيتُ ساعات النهار في عملي. وبينما كنت عائداً إلى البيت، وصلني اتصال هاتفيّ دوليّ. إنها جمانة. هي لا تتصل هذه المرّة كي تسألني عن الأوضاع في مصر. يبدو أنّها عَرفتْ ما يجري في البلد من وسائل الإعلام. هذه المرّة تخبرني أنها لن تستطيع أن تأتي إلى مصر بسبب الأوضاع، وتطلب منّي أن أعتني بنفسي لأجلها هي، وقالت لي إنها ستتّصل بي بعد يوم، أو يوميْن كي تطمئن عليّ. تتساقط الآلام رضاباً على أعماقي كما الثلوج. أتألّم بسبب آلام مصر لأبنائها الشهداء، وأتألّم لعدم عودتها، وأتألّم بسبب آلام النّاس في الشّوارع.

لم أقلْ شيئاً تقريباً عندما سمعت كلامها. لم أقل شيئاً سوى: "حفظ الله مصر." هي آثرتْ أنْ لا تأتي بسبب الأوضاع. على الرّغم من أنّني حزنتُ لعدم عودتها، لكن كيف تشعر بالآلام الصغيرة عندما تكون مسكوناً بآلام كبيرة، عميقة؟ الآلام الكبيرة. دماء الشهداء والمصابين... آلام مصر. بكيتُ، فآلام مصر تُبكي.

* * *

يمضي الوقت، ويمرّ يومان، وتشتدّ حدّة المظاهرات والاحتجاجات في الثامن والعشرين من يناير، وذلك بسبب انقطاع

خدمات "الإنترنت" واتّصالات الهواتف المحمولة. كان ذلك اليوم يوم غضب في مصر. فمصر لا يمكنها أن تُعْزل عن العالم. الاحتجاجات تتعالى، وتسيل دماء مزيد من الشهداء، ويزداد عدد المصابين. الحزن يغلّفني، والألم يتعمّق في داخلي على هؤلاء الذين يذهبون دون عودة من أجل مصر. هم شهداء مصر... هم أحرارها... هم أبناء النّيل.

عصر ذلك اليوم كنت أجوب الشوارع. شوارع القاهرة وأسمع ما يقوله الناس، وأرى حالة الغضب السائدة بسبب انقطاع خدمات "الإنترنت". لم أستطع أن أتحدّث مع جمانة عبر الانترنت، ولا كان بالإمكان الاتّصال بها هاتفيّا. هي أخبرتني أنّها ستتّصل بي كي تطمئن عليّ، لكنّ انقطاع الاتصالات في ذلك اليوم لم يجعلني أتوقّع اتّصالاً منها. لم أدرِ إلى أين أذهب. هل أعود إلى البيت؟ أَمْ أبقى في الشوارع؟ أَمْ أذهب إلى زوج أختي، هاني الذي أحبّ أن أتحدّث إليه دائماً. "سأذهب إلى هاني". هكذا قرّرتُ.

سامي غادر مصر كي يزور أقاربه في رام الله. هو لم يَعُدْ هنا. وبينما كنت في سيارة أجرة، متوجّهاً إلى بيت زوج أختي، رحتُ أنظر إلى هاتفي المحمول علّني أجد شيئاً منها... رسالة أو مكالمة فائتة. كأنّني لا اريد أن أصدّق أنّ اتّصالات الهواتف المحمولة مقطوعة، وأن خدمات الانترنت قد توقّفت. لا أجد شيئاً على شاشة هاتفي المحمول. أسترجع

اتصالاتها السابقة. آخر اتصال وصلني منها في السادس والعشرين من يناير، عندما أخبرتني أنها لا تستطيع أن تأتي إلى مصر.

أنظر إلى الرسائل النّصية في هاتفي. لا أجد شيئاً جديداً. هي بعض الرسائل القديمة التي كانت تصلني من صديقة كوريّة جنوبية، وصديقة بريطانية. ضحكتُ في أعماقي ساخراً من هذا الرَشْق العبثيّ في هذه الحياة. رَشْق لا منطقيّ يخترق أعماقنا. لا يهمّني ما يأتي من رسائل من كوريا الجنوبية، أو من بريطانيا. ما يهمّني هو ما يأتي من سوريا، لكنْ لا شيء يأتي.

أنظر إلى هاتفي المحمول، وأنا أسمع بعض حديث السائق مع رجل كان يجلس في المقعد الأمامي عن ما يجري في ميدان التحرير. أحدّق في الهاتف، وأسمع كلام السائق، ومن أعماقي، إنطلق دعاء إلى الله بأن يحفظ مصر، ويحفظ شعبها. كلام السائق، والهاتف المحمول الذي لم يعد يقطع المسافات، ولم يعد يعبر القارّات في اتصالاته. كلام السائق، والهاتف المحمول... وأما أنا فأهيم بسكونٍ بينهما. فمصر تتألّم وتحزن على أبنائها الشهداء والمصابين. والهاتف المحمول ينضح بصمت عجيب. هي الرسائل القديمة الموجودة فيه. فلماذا احتفظتُ بها على الرّغم من أنّ أمرها لا يعنيني، أو لم يعد يعنيني؟ ما معنى أن تحتفظ بشيء لا معنى له في حياتكَ، أو في أعماقكَ؟ أحياناً، قد نحتفظ بأشياء لا معنى لها في حياتنا، أو في داخلنا، كهذه الرسائل الموجودة على هاتفي

المحمول. إذا لماذا نحتفظ بها إذا كانت بدون قيمة جوهرية في داخلنا؟ ربّما، لأنّنا لم نجدِ الوقت للتخلّص منها، وليس لأنّنا نتشبّث ببقائها. عندما لا تجد وقتاً لشيء تحتفظ به، فهو خارج عن دائرة اهتمامكَ، ولا يحمل قيمة بالنسبة إليكَ. فالاحتفاظ هذا ليس للأهميّة، بل لعدم الأهميّة. هي الأشياء التي نحبّها، والأشخاص الذين نحبّهم، نَنْتَزِعُ الوقتَ من ضيق الوقت لأجلهم... لنكون معهم.

وصلت بيت أختي. هاني وأختي يجلسان أمام التلفاز، يراقبان ما يجري في البلد. جلست متفرّجاً. ميدان التحرير يمتلئ بالمحتجين، والمعتصمين. الدبّابات تنتشر في الشوارع، دون تدخّل الجيش. قوّات الأمن تتصدّى للمحتجّين.

أنا الذي جئت كي أتحدّث، وجدتُ نفسي غارقاً في الصّمت، كأنّي جئت كي أصمت. أسمع هاني يتمتم كلمات وصلني بعضها، وأنا شارد الذهن هنا... وهناك. شارد الذهن فيما كان... وما سيكون... وما يجري. كلمات هاني يصلني بعضها، مثل: "الميدان... الشهداء... الناس... مصر..."

أفيق من غفلتي... يغيب ذهني... أفيق مرّة أخرى... ثم يهرب عقلي إلى لا مكان. ما الذي يجري معي؟ كأنّني لم أعد أنا... لم أعد نفسي. غريب عن ذاتي.

جاءت فجأة ابنة أختي، ملاك، وجلست في حجري كعادتها. قبّلتني وقبّلتها. شعرت بالارتياح. قد يُشْعِركَ تقبيل طفل بأنك تغتسل بماء الرّاحة، وتنفض غبار الحياة عنكَ. بعض عقلي يفكّر في هذه الطفلة التي تتقافز الابتسامات على وجهها، وبعض عقلي يفكّر في حُزن مصر على ابنائها الشهداء والجرحى، والبعض الثالث يتخيّل جمانة. خيالي ذهب إليها كي يجلبها إليّ في تلك اللحظة. تصوّراتي تستحضرها. أتصوّرها الآن تتقاسم حضني مع هذه الطفلة. تُرى ما وجه الشبه بين مصر، وهذه الطفلة وجمانة؟ سألتُ نفسي. ثلاثتهم يرتعش الجسد حُبّاً لهم... وتتوق الروح شوقاً لهم.

سألتني أختي، كعادتها، عن أحوالي، فأخبرتها أن أموري على ما يُرام.

سألتُ هاني فجأة:

- متى ستعود خدمات الانترنت حسب اعتقادك؟

أجابني متعجّباً من سؤالي:

- وكيف لي أن أعلم؟ لا أدري.

تمتمتُ كلماته:

- لا أدري... لا أدري.

غادرت منزل أختي في وقت لاحق، على الرغم من أن هاني أصرّ على أن أبيت في بيته.

* * *

وتمرّ الأيام... أيّامي وأيّام مصر بأوجاعها، وآلامها، وشهدائها. وتستمرّ المظاهرات والاحتجاجات إلى أن رحل النظام الحاكم، وتسلّم المجلس العسكري برئاسة المشير حسين طنطاوي إدارة شؤون البلاد.

عادت خدمات "الانترنت" قبل عشرة أيّام تقريباً، وأصبحتِ الاتّصالات تصلني من خارج مصر. لم يهمّني تلك الاتصالات والرسائل التي كانت تصلني من بريطانيا وكوريا وأمريكا، حتى أنّني لم أفكّر بالردّ عليها.

في أحد الأيام من أيام فبراير، كنت في مقهى "للنت". أصبحت "الانترنت" وسيلة الاتصال الوحيدة بيني وبين جمانة. تصلني منها بعض الاتصالات الهاتفية، وذلك بين الحين والآخر. التواصل عبر "الانترنت" أقلّ تكلفة من المكالمات الدولية.

كتبت لها على "المسنجر"

- أشتاق إليكِ، ولا يمكنني أن أتصوّر أنكِ لن تأتي.

ردتْ:

– وأنا أشتاق إليكَ أكثر مما تعتقد.

كتبت بسرعة:

– فلتأتي إذاً.

ردتْ:

– لا يمكنني الآن. لدي ارتباطات عمل.

سألتها:

– متى ستعودين إلى القاهرة؟

أجابت:

– ربما في الصيف القادم.

"في الصيف القادم"، ردّدتُ في أعماقي. معنى ذلك خمسة أشهر من الآن تقريباً. أنا الذي كنتُ أمحو بممحاة لهفتي ولوعتي أيّام الانتظار، أجد نفسي أخطو خطواتي الأولى في طريق انتظار طويل. متى سأصل إلى محطّة الحبّ؟ متى سأصل إلى نقطة الالتقاء؟ هل سَهُلَ عليها أن ترسل إليّ هذه الكلمات؟ ولكن ثَقُلَ عليّ أن أستقبل كلمات الغياب... غيابها هي.

أخوض معركةَ الغياب أنا...

وأهرولُ في ساحات الصّبر، وميادين الانتظار...

وأَرصُدُ لقاءً ابْتَلَعَه بُعْدُ الزّمن... وبُطء الأيّام...

دثّرني الحزنُ على لقاء لم تشأ الأقدارُ أن تخطّ كلماته على صفحات القاهرة... أن تعانق رحيقَه نسائمُ النّيل. ماذا أقول لها في هذا الحوار الميّت على "الانترنت"؟ كيف أقنعها بالعودة؟

كتبتُ لها محاولاً استمالتها للعودة:

- الصيف القادم بعيد... بعيد جداً. أنا حزين لأن أيام الغياب الموجعة تمتدّ.

ردتْ:

- أنا حزينة أيضاً لأنني لم أستطع أن أعود إلى القاهرة. قمتُ بترتيبات السّفر، لكنّ الأمور تغيّرت فجأة.

تترامى مشاعر الحزن في داخلي على ردّها. مُثْقَلَة حزناً هي أيّامي بغيابها.

كتبتْ مرة أخرى:

- أحبّكَ...

صعقتني تلك الكلمة حزناً. حزنٌ على حزنٍ. كيف أتلقّى هذه الكلمة الرائعة في هذا الحوار الصامت، وفي هذا البُعْد المكاني؟ فهذه الكلمة، على الرغم من دفئها، فإنّ البرد يغلّفها. بردُ بُعْد المكان. أرغب أن أسمعها تنطلق من حرارة شفتيْها... أن تصلني أثناء حرائق عناقها... أن تطربني بِغَنْجِ حروفها. لكنّها أتتْ مِن بعيد، فاقدة الحرارة... ممتلئة المعنى. عيناي تراقبانها كرادار دون أن يهتزّ جسدي بذبذبات دفئها. هل ألعن النت الآن على برده؟ أم أشكره على إتاحة الفرصة لي كي أجري هذه المحادثة معها؟

كتبتُ لها أردّ عليها، آملاً أن يكون في وسيلة الاتصال الباردة هذه شيء من الدفء.

- وأنا أحبّكِ.

كتبتُ هذه الكلمة والحزن يعصرني، لأنني أكتبها ولا أقولها. هناك قوّة ودفء في الصوت لا تطالهما الكتابة، على الرغم من أنني لا أُنِكرُ قوّة الكتابة. لكن لا يمكن أن ينطلق من رحمها دفء الصوت.

سألتني فجأة:

- كيف هي الأوضاع في القاهرة؟

أجبتها:

- الأوضاع هادئة. يمكنكِ معرفة ذلك من وسائل الإعلام.

كتبتْ:

- من الأعماق أتمنّى لمصر الأمْن والاستقرار والازدهار.

كتبتُ:

- جميلة هي مشاعركِ تجاه مصر. أشكركِ.

لم يعد الاتصال متاحاً معها الآن. يبدو أنها قامت بتسجيل الخروج، أو انقطع "النت" عندها. لم أدرِ. نظرتُ إلى الساعة. لديّ عشر دقائق أخرى كي ينتهي الوقت المحدّد لي على "النّت". رحت أنظر إلى قائمة الأصدقاء. ها هو سامي في وضع اتصال. قمتُ بإضافته مؤخّراً، فأصبحت قائمة الأصدقاء تتكون من أربعة. صديقي الميّت أيمن، صديقي وزميلي في الخدمة العسكرية محمد، جمانة، وسامي. هؤلاء الأصدقاء يحملون صفة التميّز في أعماقي، لذلك ليْسوا موجودين ضمن قائمة الأصدقاء الفوضويّة، العشوائية على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك".

كتبتُ لسامي أسأله عن أخباره في رام الله، وعن وقت عودته إلى مصر. جاءني ردّه سريعاً، وأخبرني أنه سيعود خلال أسابيع إلى القاهرة، وأنّه يقضي وقتاً رائعاً مع أهله في رام الله.

استيقظتُ صباح اليوم التالي مثقلاً بالتفكير... التفكير فيما قلتُ وما قالت في محادثتنا عبر "الانترنت". هي قالت إنها لن تستطيع أن تأتي في هذه الفترة. لم تستطع ساعات النّوم أن تفرّغ عقلي من التفكير، وتجرّد قلبي من الحزن، كما يفعل النّوم عادة في الجسد.

الظروف تَرْشُق صبري بعدد كبير من أيّام الانتظار. لن أحسب هذه المرّة، ولن أخوض في عملية جمع وطرح طويلة كما فعلتُ في السابق. فقد حسبتها في الماضي، وعندما وصلتُ إلى عتبة أيّام انتظار، وجدتُ نفسي أترنّح على عتبة شهور. انتظر الآن شهوراً، وليس أيّاماً. يبدو أنّ أيام ما قبل اللقاء تتناسل وتتكاثر.

هو الصيف القادم... لا حاجة لي بما يسبقه من أيام وشهور. فإحباطي قادني إلى هذه اللامبالاة بحسابات الزّمن، ليس لأنّني لم أعد أهتمّ بلقائها، فأنا ما زلت أتوق إليها، وأتوق إلى دفئها، تعبتُ من انتشال الدقائق والساعات والأيام. والآن، انتشال الشهور من بئر الوقت اللامتناهية.

نهضتُ من سريري، وأمسكتُ بهاتفي المحمول كعادتي، ليس لأنني أرغب في أن أتّصل بأحد، بل لأنني أردتُ أن أعرف ما وصلني من رسائل أو مكالمات فائتة خلال ساعات نومي. لا مكالمات فائتة، كأنني أصبحت خارج دائرة العالم. ولكن... لكن هناك بعض الرسائل، كأنني عدتُ إلى دائرة العالم خلال ثوانٍ. أضحكتني هذه الرسائل. أضحكتني

لأنها لا تعنيني. قد يضحككَ، أحياناً، أمر مَنْ لا يعنيكَ. وقد يبكيكَ ويقهرك أمر مَنْ تشعر أنه يخصّكَ خصوصيّة نفسكَ. رصاصات قهْر من هِبَة الأيام، فكّرت ساخراً.

تصلني رسالة من صديقة كوريّة جنوبية... صديقة تحتاج ذاكرتي إلى دقائق كي تتذكّر إسمها، وتحتاج إلى ساعات كي تتذكّر تفاصيل ملامحها.

رسالة من صديقة أخرى. صديقة بريطانية. هذه لا تزال ذاكرتي تتعثّر باسمها، ماريا. يبدو أنّها تتميّز عن الفتاة الكوريّة بأنّ إسمها لا يزال يترنّح في ذاكرتي. ولكنْ لا أذكر شيئاً مما قلته لها عندما التقينا هنا في القاهرة. أهو الخلل في ذاكرتي؟ أَمْ في قوّة تأثيرهنّ عليّ؟

هل تدرك الصديقة الكوريّة أنّها ترسل رسالة إلى شخص تحتاج ذاكرته إلى بعض الوقت كي يتذكّر إسمها؟ تُرى ما الذي يجعلني أسمّيها "صديقة" إذا كان أمرها كذلك في ذاكرتي؟ هي كلمات نُطْلقها، أحياناً، هكذا، دون التفكير في حقيقة مضامينها. تماماً كهؤلاء الأصدقاء الذين تحتويهم قائمة الأصدقاء على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك". أشخاص قد تضيفهم إلى قائمة الأصدقاء، أحياناً مجاملة، وأحياناً أخرى خجلاً من أن ترفض طلبهم، وأحياناً بسبب إعجابكَ بصورتهم التي قد لا تعبّر عن الواقع شيئاً، وأحياناً أخرى بسبب رأي يكتبونه، ولا يعبّر عن ثقافتهم شيئاً، ولا يشير إلى مدى إيمانهم بما

يكتبون. لكن هاتين الصديقتيْن لم تكن معرفتي بهما على شبكة التواصل الاجتماعي، وإن كنتُ أتجاهل التواصل معهما على "النت". التقيْتهما هنا في القاهرة.

في الرسالة الأولى، تسألني الفتاة الكورية عن حالي، وتخبرني أنها ترغب في أن تراني، وهي تدرس أمر العودة إلى القاهرة. ضحكتُ. الكلام في الرسالة أثار في أعماقي رغبة عجيبة في الضحك. هي لا تحتاج إلى أن تدرس أمر عودتها إلى القاهرة إذا كنتُ أنا سبب عودتها، لأنّني لن أتردّد أن أغيب عن أجواء اللّقاء إذا كانت تخطّط للقائي. كنت أحبّ أن أكون معها في السابق، والآن فقدتُ هذه الرغبة. أمّا إذا كان سبب عودتها السياحة أو العمل أو أي غرض آخر، فهذا شأنها وحدها.

أما الصديقة البريطانية، فتصف لي في رسالتها أيامها في القاهرة، وتقول إن تلك الأيّام كانت رائعة، وتطلب مني أن أرسل إليها رسالة أخبرها فيها عن أحوالي.

أخذت نفساً عميقاً، ثم رحتُ أكتب رسالة تتقافز إلى مساحتها كلمات مغلّفة بدفء المشاعر، وذيّلتُ الرسالة برغبة مستعرة في اللقاء. ضغطتُ على زر الإرسال، وأرسلت الرسالة بشغف إلى الأجواء الشاميّة. الأجواء السوريّة، وليس إلى الأجواء البريطانية. فيدي كتبتْها، وقلبي أرسلها إلى مستقرّه... إلى حلب.

سمعت أمّي تصرخ فجأة بكلمات احتجاج. يبدو أنه أغضبها أنني ما زلت في البيت، ولم أذهب إلى عملي. لم أشعر بالرغبة في الذهاب إلى العمل، ووجدتُ نفسي مربوطاً بحبل البقاء في حجرتي.

أسمع كلمات أمّي من حجرتي، تتساءل عن سبب عدم ذهابي إلى عملي. ولكن ما سبب عدم رغبتي في الذهاب إلى العمل؟ هل هو ذلك الحوار الذي جرى بيني وبين جمانة الليلة الماضية على "النت"؟ أَمْ بسبب هذا الإرهاق الجسديّ الذي أشعر به الآن؟ أَمْ بسبب هذا الإرهاق الفكريّ الذي يجتاحني بين الحين والآخر؟ فارتطام رغباتي برغبات والديّ يثير استيائي، وحتى غضبي أحياناً. ما الذي يجعلني أعمل وقتما يريدان؟ وما الذي يقودني إلى زواج هما يرسمان لوحته بألوان رغباتهما؟ سأعمل وقتما أشاء، وسأتزوّج مِمّن أرغب.

ما أن خرجت من حجرتي، حتى ولجتُ كهفاً من التوبيخات، والاستياء. توبيخ أمّي، واستياء والدي من تصرّفاتي.

أقف صامتاً... لا أجد ما أقوله، أو بالأحرى لا أرغب في أن أقول شيئاً. فبعض الأحيان لا تجد نفسكَ مُلْزماً بأن تقدّم للآخرين مبرّرات لتصرّفاتكَ. هكذا شعرتُ عندئذ. لستُ مُلْزماً بتقديم تبرير لتصرّفاتي. كيف سأفسّر لأمّي عدم رغبتي في الذهاب إلى العمل اليوم إذا كنت أنا نفسي لا أستطيع أن أحدّد السّبب؟ "لا أدري". هاتان الكلمتان لن تقنعاها بشيء. هي لن تقتنع، وأنا لا يهمّني أن أقنعها.

قضيتُ ذلك النّهار غارقاً في كسل لم يسبق أن شعرتُ به من قبل. أحد الأصدقاء من الإسكندرية اتّصل بي يدعوني إلى زيارته، وقضاء نهاية الأسبوع في الإسكندرية، على شاطئ البحر المتوسط. لم أردّ على طلبه بالقبول أو الرفض، وقلت له إنّني سأفكّر في الأمر، وأُبلغه بقراري في اتصال لاحق. لكنّني لم أفعل. فلم أستطب فكرة الذهاب إلى شاطئ البحر في تلك الأيّام من أيّام فبراير. أحبّ البحر في الصيف.

اتّصل بي لاحقاً صاحب العمل، لكنّني تجاهلت الردّ على اتّصاله. حتماً يريد هو أن يعرف سبب غيابي عن عملي. ولكن كيف سيقتنع بأنّني "لا أدري؟"

لن أردّ على اتصاله، ولن أكلّف نفسي عناء تقديم المبرّرات والأسباب. "لا أدري" أيضاً كلمتان تستقطبهما دائرة التّبرير وبيان السّبب بطريقة مواربة.

في أوج الكسل أردّ على اتصالات الأصدقاء، وغير الأصدقاء. مكالمات لم يعنِني محتواها، لكنّ الكسل في أعماقي قادني إلى سماعها. فأنتَ عندما يغيب عنكَ ما يعنيكَ، تجد نفسكَ غارقاً بما لا يعنيكَ دون أن تدري. فما معنى أن أردّ على اتصالات، على الرّغم من عدم الرّغبة في سماع محتواها.

رسائل، واتصالات هاتفية، كأنّ ذلك اليوم خُصِّص للهاتف المحمول... وأنا والكسل.

* * *

أيّامي تمرّ بطيئة...

رصدتُ شهور السّنة...

هي قالت...

يناير...

وجاء يناير ولم تأتِ هي...

والآن يتّكئ انتظاري على ما سيكون...

وتتّكئ أيّامي على ما سيأتي...

الصيف القادم...

فهل سيأتي مُحَمَّلاً بعودتها...؟

هل سيأتي مُتَوَرِّداً بإشراقتها...؟

وهل سيأتي بما لي منها...؟

وبما لها منّي؟

مساء ذلك اليوم من أيام آذار، اتّصلت بصديقي سامي الذي عاد من رام الله قبل أسبوعين تقريباً. شعرتُ برغبة في التحدّث إليه. على الرّغم من أنّني لا أجد الكثير من الأشياء المشتركة بيننا، إلاّ أنّي أشعر برغبة في التحدّث إليه بين الحين والآخر.

التقينا على كوبري 6 أكتوبر. فهذه هي المرّة الأولى التي ألتقي به بعد عودته من رام الله.

سألته ونحن نسير على الكوبري:

- كيف كانت إقامتكَ في رام الله؟

أجابني:

- كانت رائعة بين الأهل والأقارب. لكننا، نحن الفلسطينيون، لن نعرف السعادة الحقيقية إلاّ بعد تحرير أرضنا المُغْتَصَبة.

قلتُ:

- ستبقى فلسطين في القلب. في قلب كل مصريّ.

بدا سعيداً بكلامي. رحنا بعد ذلك نتحدّث عن الثورة في اليمن ضد علي عبد الله صالح. الثورة التي بدأت شرارتها من جامعة صنعاء في الخامس عشر من يناير. وتطرّقنا في حديثنا إلى الثورة الليبية ضد نظام القذافي، وهي الثورة التي اندلعت في السابع عشر من فبراير 2011.

قلتُ مغيّراً مجرى الحديث:

- وماذا عن الفتاة التي تحبّها هنا في مصر؟ ألم تخبرها بأنك تحبّها، وترغب في الزواج منها؟

ابتسم، ثم لاذ بالصمت، كأنّ سؤالي فاجأه.

قال بعد صمت:

- لم أخبرها... لكنّها حتماً ستعرف ذلك وحدها.

ما الذي يضيره في أن يخبرها؟ كرّرْت هذا السؤال في أعماقي. هل هو سعيد لمجرّد أنه يحبّها، ولا يعنيه إنْ كانت هي تحبّه أم لا؟ لا أدري.

قلت له:

- ألم تخبرني ذات مرّة أن أفلاطون قال: "يستطيع كل إنسان أن يكون شاعراً إذا لامس قلبه الحُبّ"؟ لا أعتقد أن هذا الكلام ينطبق عليكَ...

قاطعني ضاحكاً:

- ولماذا؟

أجبته:

- لأنك غارق في آراء الفلاسفة، وفي طريقة تفكيرهم.

قال:

- أعتقد أن أفلاطون عندما قال هذا، رأى أنّ العاشق تتحرّك في أعماقه المشاعر بطريقة قويّة، مما يجعله يرغب في صياغة هذه المشاعر في قوالب الشِّعر. لا أدري لماذا أشعر أنه لا يمكن لقلبيْن أن يلتقيا تماماً. فمَنْ تريده، تجده يريد شخصاً آخر.

قلت:

- يجدر بكَ أن تكتب الشِّعر حسب كلام أفلاطون، وتتخلّى عن آراء الفلاسفة، ونظريّات علم النفس.

قاطعني مبتسماً:

- في الحبّ فلسفة أيضاً.

حاولنا التوجّه نحو الجهة الأخرى من الكوبري. السيّارات تسير بسرعة، ونحن لا نستطيع أن نعبر الشارع نحو الجهة الأخرى. يلزمكَ التريّث، وتفكيراً مُتَشَعّباً كي تعبر شارعاً مصرياً تسير فيه السيارات بشكل مرصوص كحبّات مَسْبحة. بعد دقائق تمكنّا من عبور الشارع نحو

الجهة الأخرى. عاد سامي فجأة إلى الحديث عن الثورة اليمنية، وعن ما يجري في الشمال الإفريقي، ثورة ليبيا بالتحديد.

قال:

- أصبحنا نسمع عن بلطحّية اليمن، والمرتزقة في ليبيا... ها هي أسماء جديدة تظهر في الأفق العربي.

وتحدّث أيضاً عن الليبيّين الذين فرّوا من بلادهم إلى دول مجاورة، هرباً من القتال الدائر في ليبيا. ولاجئون يمنيون هربوا من المعارك في بلادهم. عجيب ما نسمع وما نرى. كنّا نسمع عن لاجئين فلسطينيين هجُّروا من بلادهم عام 1948، والآن نسمع عن لاجئين يمنيين وتونسيين، وليبيين، كأنّ اللجوء لصيق الشعوب العربية... والتشرّد من الأوطان قَدَر العرب. ولكن، ما الذي جعله ينتقل من فلسفة الحبّ إلى فلسفة الثورات في البلاد العربية؟

رنّ هاتفي المحمول. رقم أمّي. أمّي تعتقد أنّني أرافق فتاة. لكن خاب ظنّها. فلستُ مع فتاة... أنا مع شاب، نتداول أموراً سياسيّة دون خبرة، وأموراً عشقيّة، تتعثّر بِبُعْد المسافات. أخبرتُ أمّي أنني مع أحد أصدقائي، وأنّني سأعود إلى البيت في وقت لاحق. على الرّغم من اختلافي مع أمّي في كثير من الأمور في حياتي، لكنّ خوفها وقلقها عليّ إلى ذلك الحدّ يجعلني أنحني تقديراً وحبّاً لها. رائع أن تجد هناكَ من يفكّر فيك،

ويحرص على سلامتكَ أينما تذهب. هي أمّي. هي كالنيل يفيض عطاؤها حبّاً.

سألت فجأة:

- تُرى متى، نحن العرب، سنجد وقتاً للتطوّر أيها الفيلسوف الشاب؟

ضحك، ثم قال:

- عندما نجد وقتاً للتفكير.

يشتدّ برد القاهرة في تلك الليلة من ليالي مارس.

سألني:

- ألا يضايقك البرد؟

كيف لي أن أشعر بالبرد إذا كانت أفران المشاعر تغطّيني وتحتويني؟

سألته كأنني لم أسمع سؤاله:

- أتشعر بالبرد؟

قاطعني وهو يضع ذراعيه على صدره:

- يشتدّ برد القاهرة باللّيل. أعتقد أنني يجب أن أذهب.

بعد دقائق، أوقف سيارة أجرة كي يستقلّها، ويتوجّه إلى شقّته في مدينة نصر.

قبل أن يصعد في السيارة قلت ضاحكاً بنبرة مغلّفة بالفكاهة:

- أرسل تحيّاتي إلى أفلاطون الذي قال: "كل إنسان يستطيع أن يكون شاعراً إذا لامس قلبه الحبّ."

ضحك سامي، ثم صعد في السيارة.

* * *

مرّت بضعة أيام...

وأنا أرتّل كلمات اللّقاء في مَعْبد العشق...

وأرسم أيّاماً ولحظات،

بألوان قوس قزح...

قوس قزح في أفق الحُبّ...

بألوانه السّبعة...

وبانحناءاته المُستَمَدّة،

من انحناءات جَسَدها الجَريئة.

هكذا نَقَشَتْ نَبَضاتُ قلبي تفاصيلَ لقاءٍ،

يَبْعد، يَقْرُب، ثم يَبْعُد...

فَفي العِشْق فقط،

تستقيلُ اليد عن الكتابة،

ويخطّ القلبُ ما يشتهي،

وتقرأ الروحُ ما ترغب ...

مساء أحد الأيّام من أيّام آذار، كنت مع أصدقائي في أحد المقاهي في القاهرة. تحدّثنا عن مواضيع عديدة. فمنهم مَنْ تحدّث عن رغبته في السّفر إلى إحدى دول الخليج، ومنهم من تحدّث عن فتاة تقدّم لخطبتها، ومنهم من تحدّث عن حصوله على عمل في إحدى شركات السياحة. امتدّ حديثنا وتشعّب ليصل إلى خارج مصر. وهو ما يحدث في درعا في تلك اللّحظة. قيل إن بعض المظاهرات تنتشر في شوارع درعا، تطالب بالإصلاح السياسي. يبدو أنّها مظاهرات تشير إلى انطلاق ثورة... تبدأ مطالبها بالإصلاح السياسي، ثم تمتدّ هذه المطالب كي تطال رحيل النظام.

تحـدّثتُ مـع جمانـة عبر "الانترنـت" قبـل يـومين، وأخبرتني أنهـا سـعيدة، وتتـوق إلى لقـائي في الصـيف القـادم في القـاهرة. أصـدقائي يتحـدّثون، ولـم أعـد أدري عـن ماذا يتحـدّثون. كلّ ما أفكّر فيه الآن هـو مصير لقائنا في الصيف القادم. وهل هناك متّسع من الوقت للتّفكير في الحبّ الذي، يبدو أنه وُلِدَ في أوج الثورات؟

هل ستأتي؟ أصبحتُ أسأل نفسي بشكل متواصل. أصدقائي تُتَوّجهم السعادة. فالأول سعيد بسبب حصوله على عمل في إحدى دول الخليج، والثاني سعيد بسبب خِطبته للفتاة التي يحبّها، والثالث سعيد بسـبب حصـوله على عمـل في إحـدى شـركات السـياحة. أمّا أنـا فقـد استـثنتْني سـعادتهم، على الـرّغم من أنّني في منتصـف دائـرتهم... جـالس معهم... أتحدّث إليهم. لا أجد ما أفرح من أجله الآن. قد لا تأتي، ويبدو أنّ "الصيف القـادم" الـذي حدّثتني عنه تباعدتْ أيّامه، وتبعثرتْ دقائقه كما تتبعثر أوراق الأشجار عندما تهبّ رياح الخريف.

أصدقائي يسألونني: "لماذا تغرق في صمتكَ هكذا؟" لم أدرِ ماذا أجيب. هم سعيدون، أمّا أنا فلا. ما الـذي يمكنكَ قوله لشخص تشعر أنكَ فقدتَ أبسـط الأشـياء المشـتركة بينكَ وبينـه؟ هل لـديّ القـدرة على أن أشـاركهم سـعادتهم في أوج حزنـي؟ أم هـل لـديهم القـدرة على خلـع عبـاءة سـعادتهم كي يرتـدوا ثـوب الحـزن الـذي أرتديـه؟ يبـدو أن سـعادتهم لا تطال حزني، ولا يمكن لحزني أن يحتوي سعادتهم. لهم ما لهم، وليَ ما

لي. "دعهم في سعادتهم... فهم يستحقّونها، ولا يدري أحد الجهد الذي بذلوه كي يصلوا إلى قلعتها... قلعة سعادتهم." قلت في أعماقي.

لم أنلْ ما رغبت منها، فقد ادّخرتُ ما ادّخرتُ من مشاعر في صندوق المستقبل... صندوق لقاء قادم. وكان يناير محطة اللّقاء، ثم استُبْعد يناير من القائمة بُحكم القدَر. والآن... الآن أصبح الصيف القادم هو مَحَطّةُ اللّقاء، ويبدو أنه سَيُسْتبعد بحكم الأوضاع الجديدة في سوريا. هل أخطأتُ عندما وضعتُ مشاعري في صندوق الانتظار... انتظار لقاء آخر؟ ولماذا التأجيل؟ لماذا لم أنَلْ منها ما شئت؟ ولماذا أفترض أنها كانت ستوافق على كل شيء؟ لماذا لم أحاول؟ بعض الأمور لا تحتمل التأجيل، لأنّ التأجيل قد يُفْقدنا إياها، أو يُفْقدها معناها. فأين هي الآن؟ وأين أنا؟ وأين المشاعر الدافئة التي كانت ترفرف فوق النّيل كالطيور؟ أين تلك الهمسات العذبة على ضفاف النيل؟ أين... أين كل الذي مضى؟

أبعدَتني أحزاني في تلك اللّحظة عن دائرة سعادتهم. وقفتُ مُتَجَهِّماً... ومضيْتُ كالزّمن.

الفصل الثامن

أيّام تمرّ... أسابيع تمضي، وتشتدّ الثورة في سوريا، وتنتشر المظاهرات في مدن سوريّة أخرى. أصبحتُ أتابع ما يجري في سوريا باهتمام بالغ. أرسل إلى جمانة الرسائل عبر الهاتف المحمول بشكل متتالٍ، أسأل عنها، وأتابع أخبارها. جسر جويّ من الرسائل المتلاحقة عبر الهاتف المحمول. هي لا تردّ على معظمها، وتطلبني هاتفيّاً كي تخبرني عن أحوالها.

هي الأمور كما توقّعتُها. تطاير اللّقاء... تبعثرت أوراق "الصيف القادم"، وأصبح اللّقاء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتغيّر الوضع القائم في سوريا. لقاء في يناير الماضي لم يحدث، ولقاء في الصيف القادم، على الأرجح، أنه لن يحدث بسبب ارتباطه بتغيّر وضع في بلد لا تحسمه الأيام، والشهور. لقاء يغلّفه الافتراض والاحتمال الممزوجان بالاستبعاد، وربّما المستحيل. ماذا أرى من خلال باب المستقبل الموصد تماماً؟ وأيّ نافذة للعشق هذه التي تطلّ على المُستَبعَد والمستحيل؟

هل أنساها كما يستدعي المنطق؟ أَمْ أذكرها كما يستدعي القلب؟ أَمْ، كما يستدعي الجسد، اشتهيها في هذا البُعد المكاني والزّمني؟ ليتني أنساها، وليت ذاكرة الحبّ تستقيل من منصب إدارة شؤون القلب.

في عملي أقوم بتصليح السيارات... خلل السيارات، ولكنْ مَنْ يُصلح خلَل الأيام؟ أصلح السيارات كي تستمرّ. لكن لا أجد ذاتي في العمل في الخراب... خراب السيارات... وتَلَف الأيّام.

بعد الانتهاء من عملي في ذلك اليوم، ذهبت إلى زوج أختي في منزله. أتردّد على منزل هاني أكثر مما أتردّد على منزليّ زوجيّ أختيّ الأخريَيْن، كأنّه محطّتي في الملمّات. ولكن أيّة ملمّة هذه التي اقتحمت حياتي؟ هل الضيق الذي أشعر به؟

اتصلتُ بأمّي هاتفياً، كي أخبرها أنني في زيارة إلى زوج أختي، هاني، وأنني سأعود إلى البيت في وقت لاحق. لم تقلْ شيئاً. هي تطمئنّ عندما أكون في بيت أختي. كان هاني نائماً، فرُحتُ أداعب ابنة أختي ملاك، إلى أن أيقظت أختي زوجَها. لم أستطب ما فعلته أختي عندما أيقظت زوجها. هي تدرك أنّني اعتبره صديقاً حميماً، ولكنْ لم يَرُقني أن أقتحم راحة نومه كي أبثّه ما بي من هموم وضيق.

بعد دقائق، وبعد أن غلّفته اليقظة جاء هاني، وجلس إلى جواري بعد أن صافحني.

قال مُرَحّباً:

- أهلاً وسهلاً.

نظر هاني إلى ابنته في حضني، ثم أردف يقول مبتسماً:

- أراها تتعلّق بك أكثر مما تتعلّق بي وبأمّها.

قلتُ:

- وأنا متعلّق بها.

أختي تجلس معنا، وهذا لا يفتح باب حديثي مع هاني. فكّرتُ أن أنتظر بعض الوقت. فقد يُشْغِلها أمر ما، ويبعدها عن جلستنا. "لماذا لم أتّصل بهاني كي التقي به خارج المنزل؟ لن يكون هناك مَنْ يقتحم حديثنا." فكّرتُ في أعماقي.

لم أتّصل، وقد جئت، ويجب أن أتعامل مع الوضع القائم، وهو الانتظار ريثما يُشْغِل أختي أمر ما. ولماذا لا أطلب منها أن تقدّم لنا شيئاً كي تبتعد عن جلستنا، وأقول ما أرغب في قوله.

لم أطلب شيئاً، ورحت أنتظر. فأنا سيّد الانتظار. رحت أشاهد التلفاز أمامي. برنامج وثائقيّ عن باطن الأرض. تُرى مَنْ الذي اختار هذه المحطّة إذا كان زوج أختي نائماً؟ ولا يمكن لأختي أن تشاهد برنامجاً كهذا، فأنا أعرف اهتماماتها. لم أدرِ مَن الذي اختار قناة التلفزة هذه. أرغب في أن أعرف ما يجري على سطح الأرض، وليس ما يجري في باطنها. فالغليان والنيران على سطح الأرض أصبحا يفوقان ويتجاوزان نيران باطنها. يبدو أن الإنسان سيشعل الكرة الأرضية تماماً يوما ما من

شـدّة النزاعـات والصـراعات اللامتناهيـة، فكّـرت في أعمـاقي سـاخراً. سيشعلها كما يُشْعِل عود كبريت.

قلتُ وأنا أعانق الطفلة مخاطباً زوج أختي.

- ما الذي يهمّنا في باطن الأرض في هذه الأثناء؟ نريد أن نعرف ما يجري على سطح الأرض.

قال هاني وهو ينتقل إلى محطة أخرى:

- يحصل الكثير على سطح الأرض.

سألتُ كأنني لا أعرف:

- ما الذي يحدث في سوريا؟

أجاب:

- ثورة... أو مظاهرات في طريقها إلى ثورة.

ذهبت أختي باتجاه أحد أركان البيت، وهذا ما أردته.

قلت:

- أعلم. يقولون هناك ثورة... ويقولون هناك شبّيحة... وهناك متظاهرون...

ما جئت كي أتحدّث عن الثورات العربية، فأنا لست صحافياً، ولا محلّلاً سياسيّاً. حتماً تستوقفكَ الإنسانية والعروبة أمام هذا الدّم العربيّ الذي يسيل. ولكن... ما العمل؟ لا أدري.

سألت هاني بعد صمت:

– هل تذكر الفتاة الشامية التي حدّثتكَ عنها؟

أجاب:

– أذكرها أنا... ولكنْ ألمْ تنسَها أنتَ؟

قلت حزيناً:

– لا. لم أنسَها. ولماذا تفترض أنّني نسيتها؟

قال بنبرة جدّية:

– تضحِكُني علاقتك هذه أحياناً، وتثير دهشتي أحياناً أخرى.

سألته:

– ولماذا؟

قال:

– لست في حاجة إلى أن تسأل "لماذا." الأمر واضح أمامكَ. ما معنى أن تحبّ فتاة تبعد عنك مئات الكيلومترات؟ أنت لن

تقيم في بلدها، وهي لن تقيم هنا. أخبرني أنتَ. ما معنى ما أنتَ فيه؟

قلت بابتسامة شاحبة:

- اعتقدت أنك تفهمني...

قاطعني:

- لأنّي أفهمك أقول لك هذا. أنت تُتْعِب نفسك.

قلت:

- هي قالت بأنها ستأتي في الصيف القادم...

قاطعني:

- وها هي بلادها غارقة في المظاهرات والاحتجاجات، ويبدو أن الأمور ستأخذ شكل المعارك...

قلت مبتسماً، ولكن بحزن:

- أراك تُغرقني في الإحباط...

قاطعني مرّة أخرى:

- ليس إحباطاً... هذه نصائح فقط. دعكَ من الحُبّ في هذا الوضع الملتهب في البلاد العربية.

أردف هاني يقول بعد صمت:

- عجيب ذلك الشاب التونسيّ بعربته الأسطوريّة.

لا يكاد يمرّ يوم دون أن تتعثّر عيناك بحدث دمويّ في البلاد العربية. لم يعد شيئاً مفهوماً. هناك مؤيّدون، وهناك معارضون، وهناك مَنْ يقف بين هؤلاء وأولئك. يتملّككَ الصمت أحياناً عندما تتأمّل ما يجري. كأنه حَظْر صوتيّ. فالحروف تسير في عكس اتجاه الكلمات.

سألت زوج أختي بعد صمت:

- أتعتقد أنّني يجب أن أنسى؟

ضحك هاني وقال:

- يجب أن تنسى. هذا رأيي.

سألت:

- أتعتقد أنّني أستطيع أن أفعل ذلك؟

ضحك هاني، ثم قال:

- في حياتك الكثير يُنْسيكَ. الآن أنت تعمل، لماذا لا تتزوّج؟

قلت:

– أخبرتك في السابق أنّني أرغب في أن أكمل تعليمي الجامعي.

قال:

– إذاً أكمل تعليمك الجامعي، وانْسَ ما وراء البحار. إنْسَ حبيبة لم تربطك بها سوى لقاءات قصيرة.

العمل... إكمال تعليمي الجامعي... الزواج المُخَطّط له والمفروض، والحُبّ الذي يرتطم بالأوضاع السياسية. لا عملي يُرضي قناعتي، ولا تكاليف إكمال تعليمي بين يديّ. تلوح الأفكار بفوضويتها أمامي، وتقودني إلى مرحلة عجيبة. مرحلة عدم القدرة على تحديد الاتجاه.

تناولت العشاء مع أختي وزوجها. غادرت منزل هاني، عائداً إلى بيتنا.

* * *

قوافل الأيّام والشهور تسير عبر صحراء الزمّن. "الانترنت" أصبح الجسر الوحيد الذي يربط بين غيابها عنّي، وغيابي عنها. "الانترنت" هو ذلك الحضور الذي يتناثر في فضاء غيابيْنا. كم كنت أكره هذه الشبكة العنكبوتية بسبب برد حوارها... برد صورها الثابتة والمتحركة. الآن... الآن كم أتشبّث بها لأنها هي الوسيلة الوحيدة للقراءة في صفحات

غيابها... وللكتابة في صفحة البُعد... البُعْد المكاني والزّمني بقلم الحبّ والدفء. أرى بين الحين والآخر الكلمات الرقيقة التي أرسلتها لي عبر الانترنت، واحتفظتُ بها. أقرأ بسعادة ما كتبتْ لي:

حبيبي... أنتَ...

تَتَفتّح ورود الحُبّ بلمسات يديْكَ...

ويتلوّن عالمي عشقاً بَيْن ذراعيكَ...

أتَنفّسُ ذكراكَ...

وأسْتَنْشِق غرامكَ...

بكَ أحيا...

وغيابكَ مَوْت...

فأيّ مرض عشقيّ أنتَ؟!

وأيّ دواء شافٍ دفئُكَ؟!

هل يَتّسعُ قَلبُكَ لعشقي الممتدّ...؟

وهل يتّسعُ عالمكَ لأحلامي العنقوديّة بكَ؟

أتساءلُ... وأتساءلُ...

لماذا لا تَتّسع لعشقي لكَ اللّغاتُ؟

فلا تطالكَ الأوصاف...

ولا تَبْلُغ حُبّي لكَ الكلماتُ...

فأيّ تَلَف دبّ في لُغَتي؟!

وأيّ ضَعْفٍ اجتاح كل كلماتي؟!

يا حاضراً في الغياب...

يا حاضراً طاغياً بالعشق في الحضور...

أعماقي تناديكَ...

نداء الروّح للروّح...

ثَمْلى هي كلماتي...

بِنَبيذ شَفَتيكَ...

يجتاحني اللاّمَنْطِق...

عندما يختلط كياني بدِفْئِكَ...

فلا حُبَّ بَمنْطِقِ...

كما لا شمسَ في ليل.

لا يَنْتَشِرِ عَبَقُ المطرِ،

في أجواءٍ أنتَ لستَ فيها...

ولا تَبتسِمُ أشعّةُ شمسٍ،

وَيَبْتَعِدُ القمرُ عن لياليها...

وتأتي بحروفِ ولَحْنِ اسمك

أوزانُ الأشْعار وكلُّ قوافيها...

أُحَلّق بعشقكَ عالياً...

بكَ ومعكَ أهوى الارتفاع...

أرتفعُ... أهبِطُ... أُنقّبُ

في مناجم العشق.

معكَ أبحثُ عنكَ...

وأبْحثُ عنّي...

ها قد وَجَدتُني فيكَ...

ووجدتُكَ في أعماقي.

حبيبي...

أتلوكَ في صلوات الحُبّ...

وأرتّل حروف اسمكَ في دعوات الغرام،

في ركن بعيد من مَعْبَد العِشْق.

أهتزّ عشقاً لهذه الكلمات. وأرتعش شوقاً لها. هي لم تَنْسَني على الرغم من ما يجري في بلدها، لم تَنْسَني. تَنْسُج كلمات العشق كما يفعل الشعراء. ما أروعها! أيُعَقل أن لا تعود إلى مصر مَنْ تكتب كلمات التواصل العشقيّ هذه؟!! ابتلعها الغياب في يناير، وجاء "الصيف القادم." بجفاف الغياب.

زوج أختي، هاني، لا يزال يطلب منّي أن أرحم نفسي وأضع حدّاً لعلاقة لا تُجدي... لحُبّ الكترونيّ كما يقول هاني. ماذا يقصد بحبّ الكترونيّ؟ ألانني لا أستطيع أن أتواصل معها إلاّ عبر الانترنت، والهواتف المحمولة؟

أمّي لا تزال تصرّ على تلك الفتاة التي اختارتها لي. يأتي ويغيب إصرارها. يذهب ويأتي كهبات الريح. هي تقول لي إن الأمّ هي أحرص الناس على ابنها، وهي عندما تختار له زوجة المستقبل، فذلك لأنّها تدرك أكثر من غيرها ما الذي يناسب ابنها كي يعيش حياة زوجية سعيدة. إذا كان هذا رأيها، فما معنى ما يقوله لي بعض أصدقائي المتزوجين بأن المسافة بين الزواج والسعادة طويلة جداً... وأحياناً تكون المسافة لا متناهية.

جاء "الصيف القادم" الذي حدّدته جمانة، لكنها لم تأتِ. لم يعد اسمه "الصيف القادم"، بل أصبح اسمه "الصيف الماضي". لم تأتِ بسبب أوضاع بلادها. بقيتْ اتصالاتنا، على الرّغم من زهدها، وأحياناً، تَباعُد فتراتها. بقيت تحلّق في فضاء الغياب.

صيف مضى مدوناً غيابها، ومدونًا تهاوي بعض الأنظمة العربية. فالرئيس اليمني يُحرقُ خلال تفجير في تمّوز، ويتم نقله إلى السعودية للعلاج. والقذافي يُقْتَل في أكتوبر على يد الثّوار في ليبيا، وسوريا تئنّ ألماً. دم إنسانيّ يسيل. لن أقول الدّم العربي لأن الدّم

العربي، على ما يبدو، لا يهمّ أحداً. تُرى لو طرقت باب الإنسانية، فهل سيكون للأمر شكلٌ آخر؟

دماء لونها إنسانيّ... تسيل. والعالم تستقطبه دائرة الاهتمام لما يجري، ويتحرّك متسمّراً في بؤرة الانتظار والتريّث والتأمّل، وقد اعتلتْ وجهه ابتسامة دبلوماسية. ابتسامة دبلوماسية تشير إلى أنه ليس مع أحد، ولا ضد أحد، ولا يؤيّد أحداً، ولا يعارض أحداً. هو ليس هو، وأنت لست أنت، والكل مجهول... غير مفهوم. كلمات تدور في الذّهن أحياناً، أشبه بكلمات المجانين. "لا تكلّف نفسكَ عناء الفهم"، قلت لذاتي.

* * *

في ذلك اليوم من أيام ديسمبر، توجهتُ إلى مقهى "للنت" كي أسأل عن أحوالها. صديقتي البريطانية أرسلت إليّ رسالة بمناسبة رأس السنة الميلادية. العالم يودّع سنة، ويستقبل عاماً جديداً غداً. العالم يُوَدّع سنة، والعرب يودّعون أبناءهم وإخوانهم المَغلّفين بالدماء. فأيّ وداع هذا؟! وأيّ وداع ذلك؟!

قمتُ بالردّ على رسالة صديقتي، وكتبتُ: "أتمنى لكِ عاماً جديداً سعيداً." لم أدرِ لماذا قمت بالردّ على رسالتها. فأنا عادة لا أردّ على رسائل الصديقات. هل كان لرأس السنة تأثير عليّ كي أردّ على إنسان يتمنى لي

عاماً جديداً سعيداً؟ أَمْ الذّوق يستدعي أن أردّ على رسالة جاءت بعد العديد من الرسائل التي تجاهلتها؟ لم أدرِ.

دخلتُ مقهى "النت". كالعادة، المكان تتصاعد فيه سحب الدخان. يضيق صدري من الدخان، لكنني أجْبِر نفسي على التحمّل. قبل أن أقوم بتسجيل الدخول إلى نظام المحادثة "المسنجر،" دعوتُ الله صمتاً أن تكون هنا... في عالم "النت"... إذا كانت لا تستطيع أن تكون في قلب القاهرة، وبين ذراعيّ النيل. أحياناً أرسل إليها رسائل كي أطلب منها أن تقوم بتسجيل الدخول. اليوم لم أرسل إليها رسالة. فرسالة قلبي قد تصلها. قلبي لم ينزلق نحو مستنقع اليأس، على الرغم من كلّ ما قاله لي زوج أختي عن ضرورة النسيان. فهل ستسمع نداء القلب؟

آه... آه... أعجب من أمري أحياناً... وأحياناً أعجب من صدق مشاعري التي بلغت حدّ السذاجة. ما الذي يجعلني أطارد أخبارها في عالم النّت؟ أين هي؟ أين أنا؟ كأنّني أطارد شخصاً افتراضياً على "النت". لكنّني أعود فأرتدي ثوب الأمل أحياناً أخرى. ستعود... ربما تعود. هي تخبرني أنها ستحاول العودة. لن أيأس. فالحبّ ممحاة اليأس.

قمت بتسجيل الدخول. الناس حولي مشغولون بأمورهم، وأنا مشغول بالبحث عنها. أحدّق في الشاشة أمامي. قد تطرق باب الدخول الآن... أو بعد دقائق... أو ساعات... أو بعد قرون. فأنا هنا... انتظرها...

أنادي حضورها... وألعن غياباً يقهرني. لكنها، لم تطرق باب الدخول... لم تصلها نداءات قلبي. ما معنى وجودي أمام كل هذا الصّمت...؟!

غادرت مقهى "النت" حزيناً. عدتُ أفكّر في مخارج من دائرة التيه في التفكير. هل أعود إلى المنطق، وكلام هاني بعد كل هذا؟ هل استجيب لطلب أمّي التي اختارت لي فتاة كي أتزوّجها؟ هل سأتعثّر بفتاة أخرى تنسيني جمانة؟ لم أدرِ.

الفصل التاسع

أقضي أوقاتي بين عملي، وأصدقائي، والبيت. تصلني بعض الرسائل تخبرني فيها جمانة أنها بخير. هي لا تتحدّث كثيراً في الرسائل. لم أعد أسألها عن وقت عودتها إلى مصر، لأن الأوضاع في بلادها هي التي أصبحت تتحكّم في توقيت عودتها. أرسل إليها الرسائل بين الحين والآخر كي أطمئن عليها، متمنّياً لسوريا كل الخير.

هي لم تغلق باب العودة تماماً، وتنتظر الظروف المناسبة كي تعود إلى مصر. وصلتني رسالة من سامي في ذلك اليوم من أيام مايو. هو الآن في بلاده، في رام الله لقضاء أسبوع هناك لحضور حفل زفاف أخيه. أسعدتني رسالته، فقد أخبرني أنه سيعود قريباً إلى القاهرة.

متناثر الأجزاء أنا. تتقاسمني شبكة "النت"، والبيت، والعمل، وتلك الذكرى الرائعة مع فتاة أحببتها بصدق. حجبْتني عنها آلام بلادها. ذكراها لا تزال تتموّج مع أمواج النّيل. وكوبري قصر النيل لا يزال يتوق إلى موطئ قدميْها. فمصر العظيمة لا تنسى مَنْ يحبّها.

ذات ليلة كنت في البيت. اتّصل بي زوج أختي، هاني، كي أزوره طالباً منّي أن أبيت في منزله. أخبرته أنّني سأفكر في الأمر، وسأتّصل به لاحقاً. كنت أشعر بالتعب من عملي في تلك الليلة، ولم أجد أمر الذهاب إلى منزل زوج أختي أمراً سهلاً. تجري في ميدان العباسية مظاهرات ضدّ

المجلس العسكري. وهذا أيضاً سيجعل أمر الخروج من البيت أكثر صعوبة. فلن توافق أمي على مغادرتي للبيت بسبب قلقها عليّ.

بعد نصف ساعة تقريباً، فكّرتُ أن أتصل بهاني كي أخبره أنني أرغب أن أبقى في بيتنا لأنني أشعر بالتعب. طلبتُ رقمه، لكنه لم يجب. وبعد خمس دقائق، عُدْتُ أطلب رقمه مرة أخرى، ولم يأتِني ردّ منه. قرّرتُ أن أتّصل به في اليوم التالي.

في تلك الليلة كنت أحوج إلى النوم أكثر من أيّ شيء أخر.

* * *

صباح اليوم التالي، توجّهت إلى عملي. فاجأني أحد الزبائن الذي جاءني يصرخ ويشتم، مدّعياً أنني لم أقم بتصليح سيارته كما ينبغي. لم أدرِ ماذا أفعل معه. هو يطلب أن يستعيد ما دفعه من مال مقابل تصليح السيارة، أو أن أقوم بتصليح السيارة مرّة أخرى، وراح يهدّد بأنّه سيخبر صاحب العمل. كان عليّ أن أتشبّث بعملي فلم أجده بسهولة. ولم يكن بالإمكان أن أعيد له المبلغ المدفوع في تلك اللحظة، لأنّني أنتظر ما يصلني من أجر من صاحب العمل الذي يحاسب الزبائن. إذاً فالحلّ الوحيد لإسكاته هو إعادة تصليح السيارة. طلبتُ منه أن يمهلني يوماً أو يومين، وستكون السيارة على أحسن حال. غادر الرجل المكان، وترك سيارته للتصليح.

مـرّت سـاعـات النّهـار، وأنـا مشـغـول بتصـليح إحـدى السـيّارات.
مرّت ساعات النّهار، ونسيتُ أن أتّصل بزوج أختي كما قرّرتُ في الليلة الماضية. فالشّجار مع ذلك الرجل كان سبب هذا النسيان. وقفتُ جانباً، وقبل أن أطلب رقم هاني بثوان، رنّ هاتفي المحمول. الرّقم غير مألوف. فاجتاحني الفضول كي أعرف مَن يتّصل بي. ضغطتُ على زر الاستقبال. فاجأني صوت نسائيّ لم أميّزه في بادئ الأمر، ثم عرفتُ أنّه صوت أخت هاني. صوتها يغلّفه الحزن. أعرف هذه الفتاة بحكم ارتباط أخيها بعائلتي. هي في السادسة والعشرين. هي عادة لا تتّصل بي، والآن فهي تتّصل كي تصعقني بخبر هزّني حزناً وصدمة. أخبرتْني بكلمات بعثرها البكاء، وتَهدُّجُ صوتها بأن أخيها تعرّض لحادث سيْر على كوبري الساحل صباح ذلك اليوم، وأنّ حالته حرجة جداً في مستشفى أمبابة العام في تلك اللحظة. تعرّض لحادث سيْر، وهو ذاهب إلى عمله صباح ذلك اليوم من أيام مايو. انقطع الاتصال، ووقفتُ متَسمّراً حائراً بحزن صادم.

ينتابكَ شعور عندما تسمع خبراً صاعقاً كهذا بأنه غير صحيح، وأن ما تسمعه هو ضرب من ضروب الخيال والهواجس. قادتني صدمتي إلى شعور كهذا. خبر غير صحيح، وأنني يمكنني أن أذهب إلى بيت هاني، وألتقي به، وأجلس معه، وأتحدّث إليه عن كلّ شيء كعادتي... كلّ شيء في حياتي. فهو الأقرب إليّ منذ سنين. فكيف أصدّق أن كل هذه السنين تبتلعها لحظات؟ لحظات قصيرة تشطب سنوات طويلة.

وإن لم يكن ذلك قد حدث حقّاً، فما معنى اتصال أخته بي، وقولها إنه في المستشفى في حالة حرجة؟ كيف لي أن لا أصدّق كل ما سمعت؟ عقلي مشوّش بين ما أشعر أنه لم يحدث، وبين ما يشير إلى أنه قد حدث حقّاً.

تركتُ عملي على الفور، وذهبتُ إلى مستشفى أمبابة العام بسيّارة أجرة. المستشفيات بيوت الأوجاع، وخِيام معاناة. أشعر بحزن عميق، وأنا أتوجّه إلى مكان لا يحضن إلاّ الآلام والمعاناة، وأحياناً صعقات الموت. كثيرون يموتون في المستشفيات بعدما يعجز الأطبّاء عن ربط خيوط الحياة في أجساد قد ربطتها خيوط الموت.

تسير السيارة، وعقلي شارد بهاني، وضحكاته، وكلامه، ومزاحه، وغضبه، وطيبة قلبه. أتخيّله بحياة، وليس بموت... بحركة، وليس بسكون... بكلام، وليس بصمت... بانطلاق أنفاسه، وليس باحتباسها واختفائها.

تسير السيارة في اتجاه واحد في تلك اللحظة، بينما تسير أفكاري في اتجاهات مختلفة. السلامة... الموت... الحياة... الألم... المعاناة. طرق التفكير متعدّدة في رأسي.

وصلتُ مستشفى أمبابة العام. أسير نحوه بخطى متسارعة، مدفوعة بأمل الحياة، ورغبة في النّجاة. سألت عنه في مكتب

الاستعلامات، وعرفت مكانه. رحتُ أركض في المستشفى كأنّني مُنْقِذ... كأنّ كلّ الأطباء حوله لا عمل لهم، وأنّني أنا مَنْ يستطيع أن يفعل ما لا يستطيع الأطباء فِعْلَه.

وصلتُ المكان لاهثًا. أمّي، وأختي، وأقاربه عند باب الغرفة التي يوجد فيها هاني. هم يبكون. أَهُمْ يبكون بكاء رجاء بالنّجاة والسلامة؟ أَمْ بكاء موت؟ أهو بكاء مَنْ يرجو الحياة؟ أَمْ بكاء مَنْ يقهره الموت؟ لم أدرِ.

هم يبكون، ولا يقولون شيئاً. لا أجد في سؤال أوجّهه إليهم عن سبب بكائهم أمراً منطقيّاً. فإن سألتهم: "لماذا تبكون؟" فإنّهم سيجيبونني صمتاً: "ولماذا أنتَ هنا، إذا كنتَ لا تعرف لماذا نبكي؟"

أنا أعلم لماذا يبكون، وبالطبع أعلم لماذا أنا هنا. هم يبكون، ويبدو أنّهم لا يرونني، وأعتقد أن كلّ واحد منهم لا يرى الآخر. فالبكاء حالة انفعالية تغلّفكَ بهالة تحجب مَنْ حولكَ عنكَ. حالة انفعالية تبعثر تركيز الدّماغ.

يبكون، ويتمتمون أحياناً. أقترب منهم بخطى تتعثّر بالرّفض... بشعور، "لا لكلّ هذا." أقترب وتتحوّل التمتمة إلى كلام واضح. أتقدّم نحوهم، فإذا بي أسمع امرأة لا أعرفها تقترب، مُدمِعة العينيْن من أختي، وتعانقها قائلة: "البقاء لله".

إذاً هو بكاء الفجيعة... فجيعة الموت. بكاء الموت، وليس بكاء الرّجاء والأمل. آه... آه... بكاء الموت... بكاء الغياب... بكاء اللاّعودة.

هذا هاني، سار في طريق اللاّعودة... طريق الغيااااب كما سارت فيه جمانة. ففي الموت غياب... وفي السّفر غياب أيضاً. هذا هو هاني في وداعه الاضطراري بعدما نفدت أيّامه في صندوق الحياة.

في هذه اللحظات الموشومة بالحزن العميق، تتسارع إلى الإنسان كلمة، "لماذا؟"

* * *

شاءتِ الأقدار أن يأتي "الصيف القادم" الذي حدّدته جمانة موعداً للقائنا خالياً من الحبّ، مجرّداً من الدفء، منزوعاً من البهجة.

جاء الصيف مُحمّلاً بالغياب... غيابها، وغياب لحظات رعشات دافئة، وغياب هاني، وغياب سامي.

كلّهم غائبون الآن...

وها هو الحزن جاثم،

جاثم على أرض تفاصيلي،

ومهبط آمالي.

أيها الصيف الحاضر...

ليتكَ لم تأتِ...

ليتكَ ضَلَلْتَ طريقكَ...

ليتكَ لم تُسْدِل ستائر الفَقْد...

ليتكَ...

وليتكَ... وليتكَ.

لكنّ الزّمن لا يتّسع للآمال الكبيرة سعادةً...

ولا للأحلام المتمرّدة عشقاً.

كنتُ واقفاً على كوبري قصر النّيل، في تلك الليلة من ليالي مايو من عام 2012. يومان مرّا بعد الدّفن... دفن هاني. وقعت السيّارة التي كان يستقلّها في النّيل، على كوبري الساحل.

هل أُنْصِفكَ يا هاني إنْ عاتبتُ النّيل من هنا... على كوبري قصر النّيل؟ أَمْ للعتاب عمق آخر هناك... على كوبري الساحل، حيث ودّعتَ الأيّام عندما هَمَمْتَ بالحياة؟ كنتَ ذاهباً إلى عملك ذلك الصباح، قاصداً الحياة، ولكنْ كان لكَ الموت... كان لكَ الغياب... وكانت لكَ الآمال التي لم تنضج بَعْدْ. لم تشترِ السيّارة، ولم تذهب إلى الإسكندرية وأنتَ تقودها كما أردتَ.

أنظر إلى مياه النّيل المنسابة، وأقول في أعماقي.

أين هاني أيها النّيل؟

أنتَ الذي يهمس لك العشّاق...!

تخْتَزِنُ أسرارهم...!

تهبُ الحياة...

فكيف لكَ أن تصعق بالموت؟!

لماذا... لماذا أيّها النيل؟!

رنّ هاتفي المحمول. لا أعرف الرقم. لم أشعر برغبة في الردّ. فأنا أرثي كل الذي مضى... أرثي الحبّ والسعادة. رنّ الهاتف مرة أخرى. هو ذات الرقم. ضغطت على زر الاستقبال بعد تردّد، ثم قلت: "ألو". أسمع صوت رجل، فظننتُ أنه شخص من هؤلاء المعارف الذين لا أحفظ أرقامهم، لأنّه لا تربطني بهم علاقة قوية. ظننتُ أنه قد علم بالحادث، ويرغب في أن يقدّم لي العزاء على الهاتف. لكنّني بدل أن أسمع كلمة عزاء، سمعتُ سؤالاً: "هل أنهيتَ تصليح السيارة؟"

ابتسمت حائراً. هل أكذب عليه وأقول "نعم" أم أخبره أنني كنتُ مشغولاً بأمور الجنازة والدّفن لشخص قريب؟

كلمة "نعم"، لا تناسب، لأنه قد يقول لي إنه سيأتي في الصباح كي يأخذ سيارته. إذا لا بدّ لي أن أخبره أنني كنتُ مشغولاً في جنازة أحد الأقارب، وحتماً سيلتمس لي عذراً بعدم تصليح السيارة. أخبرته أن أحد الأقارب قد مات في ذلك اليوم الذي جاء فيه، وأن أمر تصليح السيارة سيحتاج إلى يومين آخرين. قدّم لي العزاء على الهاتف كما توقّعت، ثم قمتُ بإنهاء الاتصال بعدما شكرته.

تتآكل الحروف والكلمات في أعماقي، كما تتآكل الصخور بفعل عوامل الطّقس المختلفة. أنظر بصمت إلى النّيل. مراكب تتوهّج أضواؤها، تعتلي صفحات مياهه. صوت موسيقى وأغانٍ يأتي من بعيد، من أحد المراكب، وصوت موسيقى يأتي من قريب من مركب آخر، وصوت موسيقى من خلفي. تلفّني الموسيقى، كأنّني جئت كي أحتفل، لا كي أرثي صداقة قريب وصديق استقطبته اللاّعودة، وعودة حبيبة ابتلعها الغياب.

النيل يَنْضَح بالأضواء والموسيقى، بينما أعماقي تنضح بالظلام والصمت. هل يمكنكَ أيها النّيل أن تحتوي أحزاني وأنتَ تحضن كلّ هذا الفرح؟ هل يمكن أن يعلو صوت حزني على أصوات الموسيقى فيكَ؟ هل لي متّسع كي تهبط آمالي على إحدى مساحاتك؟ لن أنتظر جوابكَ أيها النّيل. فلم أعد أقوى على الانتظار.

تسمعني أنتَ أيّها النّيل...

فصوتي عالٍ وإنْ كان يتعثّر بالصّمت...

لكَ أقول يا نهر النيل الخالد...

"ها هي قطرات آمالي الصغيرة تسقط فيكَ...

تندمج في مياهكَ...

فاحتفظ بها... هِبْها شيئاً منكَ، فأنتَ حياة.

وها هي همسات الحُبّ تخترق أعماقكَ...

فاكْتُمْها، يا كاتم أسرار العشّاق...

يا حاضناً حُبّاً افترشَ أعماقكَ...

بِعبَق زهرة شاميّة نَمَتْ في أعماقكَ حُبّاً،

وارتوَتْ منّي غراماً.

أيّها النّيل...

أوْدَعتُكَ آمالي الصغيرة...

أوْدَعتكَ همسات حُبّي...

ونداء الرّوح للرّوح، إلى أنْ يأتي "الصيف الماضي".